

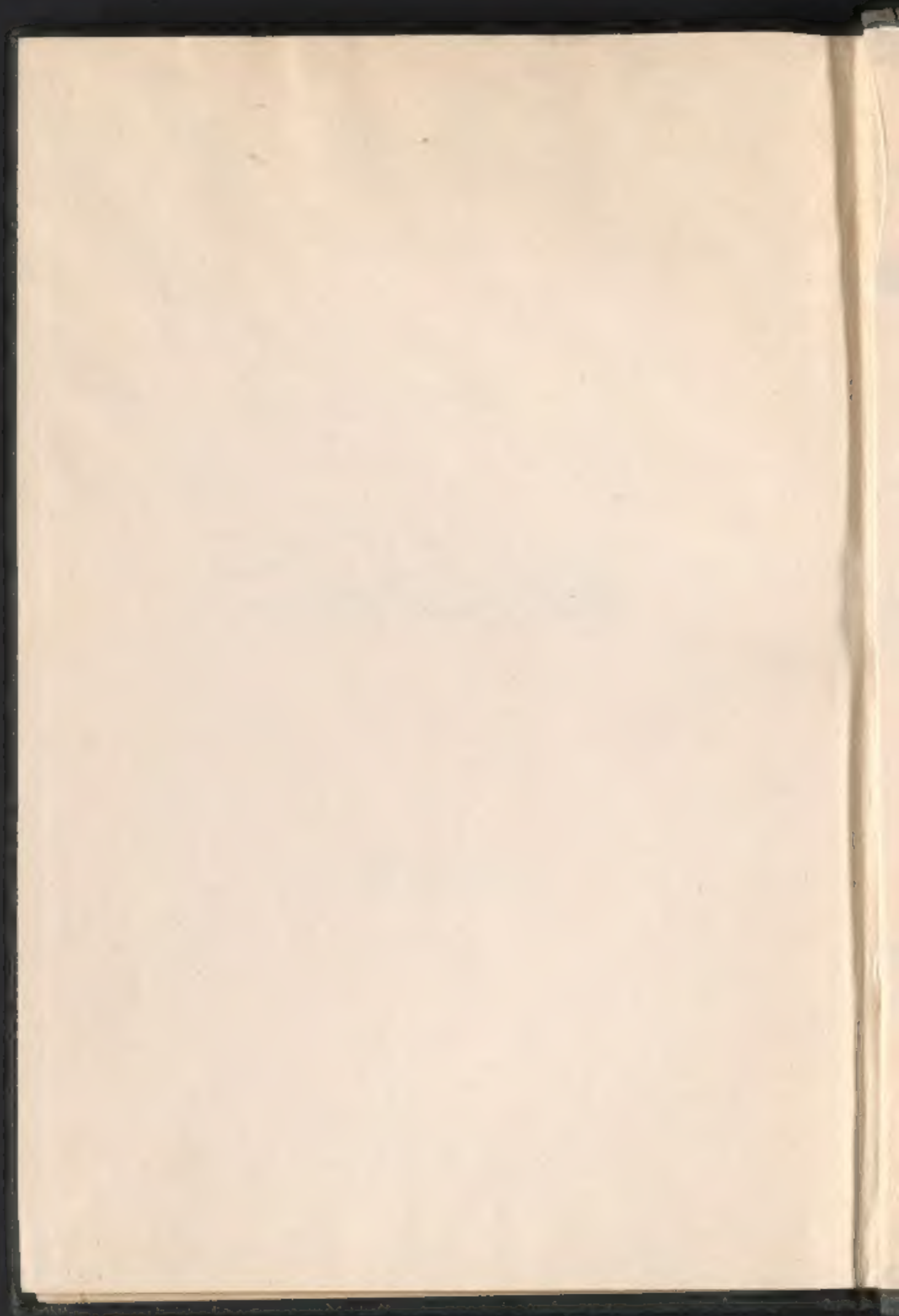
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

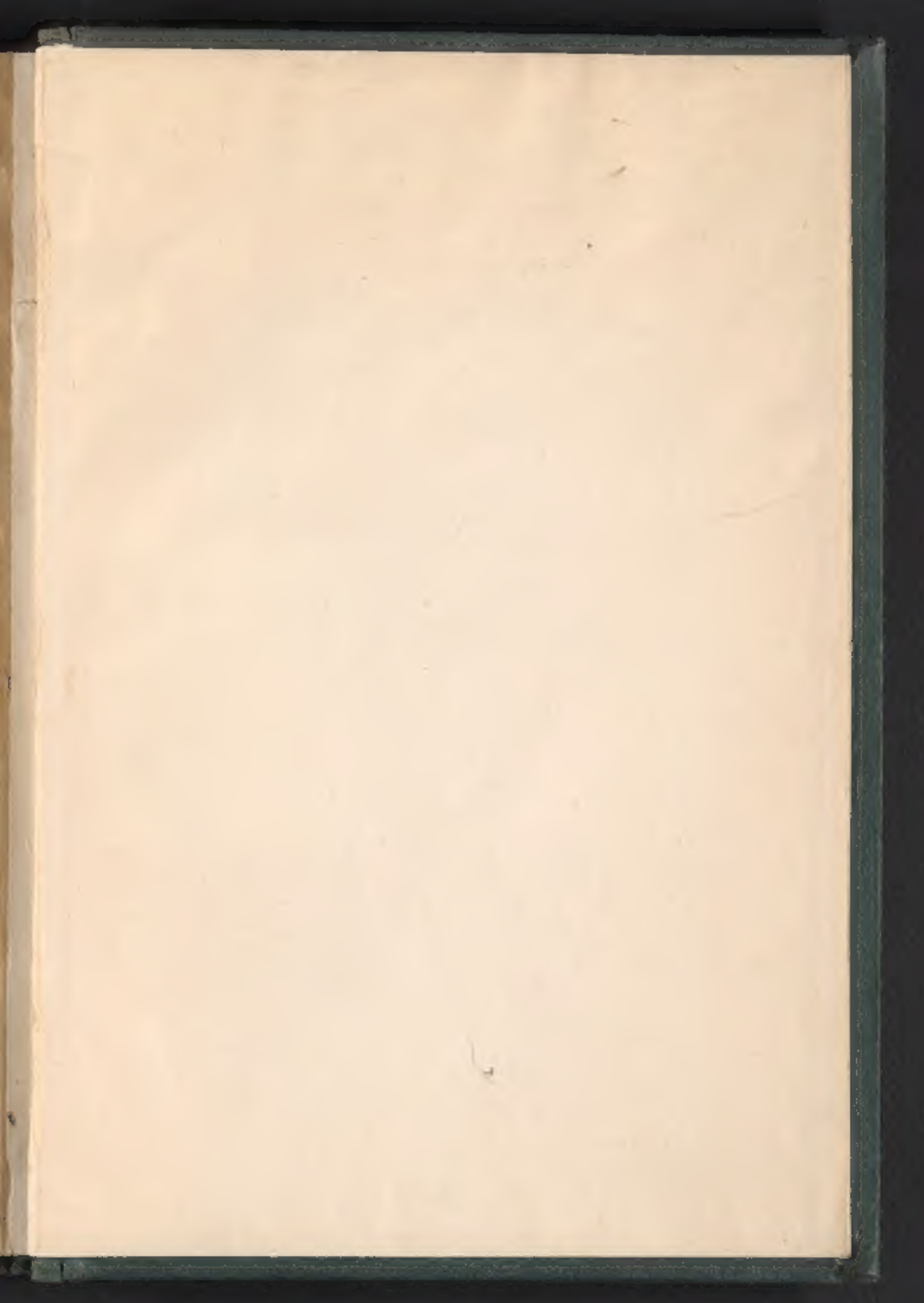


3 8534 01166 4756

06-B2699







DT
77
B568
1942

بَيْتُ بَطْوِطَة

اَجَلَانِيَّتْ تَارِيخِيَّة

ترجمه من الفرنسية د. ن.

مطبعة حليبي بيمبر

297.953

B519 h

9..
ب.ب.ا

25538

الأهداء

إلى روح المغفور له عبد العزيز لطيف

في شهر يونيو سنة ١٩٤١ طلبت مني أن
أكتب هذه الأحاديث وكنت أود أن أهدبها
إليك وأنت منعم في الحياة ولكن هي إرادة
الله شاءت أن لا أهدبها إلا إلى روحك الطاهرة
وأنت بجوار ربك في جنات النعيم

بنت بطوط

البحيرة في شهر ذو الحجة ١٣٦١

والله اعلم

بما في صدوركم

والله اعلم
بما في صدوركم
والله اعلم
بما في صدوركم
والله اعلم
بما في صدوركم
والله اعلم
بما في صدوركم

والله اعلم

بما في صدوركم

حديث نابخبي

« ما يدين به العالم ومصر للعرب »

هلم نتحدث . أجل . نتحدث معا في تاريخ مصر وما ينطوى عليه من أسرار وقواجع ومدهشات ما أكثر ما يصادفها المرء . ويتألم منها ألما دائما إذ يصطدم بأغرب المفاجآت ويتعثر في طريقه بأبعد الأمور عن الاحتمال ثم إذا به يجدها حقائق تاريخية ووقائع راهنة حيثما كان يظن أنه يسمع قصصا خرافية نسجت خيوطها لأول وهلة في رأس مؤرخ عبقرى كهو ميروس . إن في تاريخ مصر من الحوادث ما يصعب تصديقه وما يعد خيالا لما لا يجد المرء له نظيرا في تاريخ أى بلاد أخرى .

ويحسب عمر هذا التاريخ بألوف من السنين بل إن المرء ليجسر أن يرده إلى وقت انشاء العالم وخلق الانسان والأشياء ففى ذلك العهد المجهول والمحجوب بحجب الأسرار أقام انسان لا يعرف من هو هذا الأثر الغريب الذى يقال له أبو الهول وقل من يعرف كيف أقامه .. ولماذا أقامه ؟!

ثم انه ما من بلاد احتملت ما احتملته مصر من غزو أو بذلت
مثل ما بذلته من ضحايا ، فنذ الفراعنة إلى ملوك الرعاة ، ومنذ
حروب مصر مع الفرس كما رواها هوميروس ، ومنذ الاسكندر
وعهد الحكم اليوناني المقدوني الزاهر ، ثم من عهد السيادة
الرومانية السيئة الظالمة إلى عهد السيادة البيزنطية المخيبة للأمل
بما شب في أثنائها من حروب عقائدية ومنازعات حزبية بين القبط
أو العنصرية وبين الروم أو الملكيين — نقول منذ تلك العهد
ما يرح التاريخ يزداد حمقاً ويهز كيانه هذا الشعب التعس الصابر
المستسلم رغم أنفه ويقذف به من حضارة إلى حضارة أخرى إلى
أن أصبح منهوك القوى .

ومن غريب انتقام القدر أن مصر التي عانت كل هذا
التحقير امتصت — كما تمتص الأسفنج الماء — جميع تلك السيادات
ورغم ما تحملته من الانقلابات لم تفقد ميزاتها الجوهرية إلى أن
جاءها الفتح العربي فكان عهد هذا الفتح فاصلاً في تاريخها .
لقد كان ذلك الفتح عملاً من أعمال الجرأة وتغفلاً ضخماً
ولم يكنه نجاح .

غير أن هذا النوع من الغزو أصبح من الوقائع العادية
والحوادث المألوفة في بلاد كمصر انتهكتها الحروب الأهلية وما تلاها

من اضطرابات واستهدفت لعروات مستمرة وتسلط وفتح بعد
فتح في حلال الوف من السنين واذا كان قد قدر للفتح العربي أن
ينتهي بهذا النجاح ولم يقابل من مصر شيء من التعجب بعد
ما أصبحت لا يجد في الحوادث ما يدعوها الى التعجب لأنها فقدت
شعور السيادة والامتلاك وحمل التبعات . وحلت حلوا تاما من
صفة الافدام والانتكار وما يلازمها من إحساس أدنى باستنكار
أعمال الفساد البيزنطية .

ومن وقت ان تلاشت سلطه الامبراطورية الرومانية
تدريجياً حتى عهد السيادة العربية احتفظت بربطه سلطه فعلية لا
في مصر وحدها بل في جميع بلدان العلم المتمدن إذ ذاك و أدى ذلك
الى إلحاف الضرر الناجم بالشعوب الخاضعة لقوايدهم الاستبدادية
أو الى احتدبها اليه اعصار تلك الحصاره المحيطة
غير أن الفتح العربي جلب إلى مصر في الوقت عينه عجا
جديداً : هو الاسلام .

فهي سنة ٦٤ فتح عمرو بن العاص مصر بشرذمة من الرجال ولم
يبق شيء يقف في طريقه أو يقاومه بعد سقوط منف والاسكندرية
ولقد قيل أن عمرو لما استولى على الاسكندرية دمر مكتبة
سيرايون الشهيرة عملاً بأوامر تلفها من الخليفة عمر بن الخطاب

وهذه تهمة لا تثبت أمام فحص الوقائع .

ذلك أنه عندما دخل جنود عمرو بن العاص المدينة في سنة ٦٤٠ كانت المكتبة قد زالت من الوجود فلذلك برمان طول إذ كان قد حرق حاسب منها لأول مرة في عهد يوليوس قيصر

ولما حاصر عجميدس قائد الجيش المصري فيصرأ في السراى الملكية في الإسكندرية وكان أهل الإسكندرية ضالعين مع بطليموس الثالث عشر ضد قيصر وكيوطرا حاول هذا القائد الاستيلاء على الاسطول الروماني الراسي في الميناء بقرب المكتبة ورأى فيصر شبح الخطر فأمر رحله بحرق السفن فلم تنق السار ولم تدر .

ولما كانت السفن قريبة جداً من ميناء المتحف والمكتبة فإن هاتين التحفيتين العتيقتين باتت طعمة للنيران وحرقتهما المجموعة العظيمة من الكتب التي جمعها البطالسة (١)

وفي سنة ٣٧٠ بعد الميلاد هبت المكتبة للمرة الثانية في أثناء التعذيب المريع الذي وقع على هيبتيا "الفيلسوفه الوثنية الشهيرة وقد مثل بها رهبان متعصبون في شوارع الاسكندرية !

(١) كتاب " مقرر من عهد ميلا الى ألمانيا " للاب هيو من ١٢٣

وأخيراً سلت المكتبة مرة أخرى وحرفت عن آخرها
بوحشية لا مرر لها ارتكها رهائن طيبة دعاء محطم الصور
والتمثيل وكان ذلك في نحو سنة ٣٧٥ في حكم تيودوسيوس
وبعد ما أنتم عمرو بن العاص فتحه لمصر شرع في صنفها
بالصغة العربية ولم تكن مصر في الواقع أمة سامية ولا عربية
بل ولم تكن قط يونانية ولا رومانية ولا سبطية ولا بدكر من
مقامها وهبتها الماسة الا صورة عامضة حدا .

ولا سكر أن عمرو أدخل مصر لداهلة المتحيرة في حضيرة
الاسلام . وبعد ما ضرب ضربه الحريثة جاء دور القوة اذن
فليحملها على اعتناق الاسلام سواء كان ذلك حيرا أم شراً وسواء
أنتم طوعاً أو كرها والعالم أنه كان كرها . لأن اقناع شعب
يتملكه الخوف من آلاف من السيوف بعد معانداته دفعة
واحدة واعتناق عقيدة جديدة وعربية عنه بالمرة — لا يمكن أن
يكون إلا فعل القوة . وما يتعدى بيله عادة بالاف ع — ومن
الصعب اقناع المصري — لا بد من بيله . لقوة . فاحتار الفاسخ
العربي الاسلوب الأخير واحتره حلفاؤه من بعده لهداية اسلاد
الى الدين الجديد .

غير أن العرب استخدموا هذه القوة بمرة سياسية ظاهرة

وَضَبَعُ نَسْرٍ وَعَدْلُ شَدِيدِينَ وَلَمْ يَجْعَلُوهَا وَسِيلَةً لِنَهْجِ الْوَحْشِيِّ
الْمُصَوَّعِ بِالدَّمِ ، مَعَ أَنَّ الْبِلَادَ كَانَتْ تَحْمِلُ حَتَّى ذَلِكَ الْحِينَ مَعَى
التَّسَاحِ الدِّيْنِيَّ أَوْ السِّيَاسِيَّ وَكَأَنَّ الدَّوْلَ الَّتِي تَسَلَّطَتْ عَلَيْهَا مِنْ
قَبْلِ لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ لِلتَّسَاحِ اسْمًا

فَهِىَ عَهْدُ الدَّوْلَةِ الرُّومَايَةِ مِثْلًا لِمَا نَكُنْتَ مَدَاحِ مَرِيعَةٍ كَانَتْ
تَتَكَرَّرُ مِنْ حِينَ إِلَى حِينَ بِصَرَافَةٍ لَمْ يَذْكُرْ لَهَا تَارِيخَ النُّشْرِ مِثْلًا
وَأَعْنَى بِهَا مَذَاهِبَ شُهَدَاءِ الْمَسِيحِيَّةِ الْأَوَّلِينَ .

وَكَانَ الرُّطَبِيُّونَ يُؤَيِّدُونَ حُجُومَ السِّيَاسَةِ وَخِتْلَافَاتِهِمْ
الدِّيْنِيَّةَ بِقَتْلِ خُصُومِهِمْ بِالسَّمِّ حَمْدًا أَوْ أَفْرَادًا .

أَمَّا الْعَرَبُ فَهِيَ بَدَّكَرَ تَشْرِيفًا لَهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَدْبَحُوا مَسِيحِيَّينَ
وَلَا يَهُودًا وَلَمْ يَفْتَنُوا مِنَ الدِّسِّ إِلَّا عِدَدًا يَسِيرًا أَوْ قُلُوبًا خَرِيًّا لَهُمْ
لَمْ يَقْتُلُوا إِلَّا الدِّينَ كَانَ لَا يَحِيصُ لَهُمْ مِنْ قَتْلِهِمْ فَاهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ
حَدًّا عَنِ اسْطُورَةٍ . آمِنْ أَوْ مِتْ ،

وَقَدْ أَشْرَتْ إِلَى مَا كَانَ لِمُتَاخِيَنِ الْعَرَبِ الْأَوَّلِينَ مِنْ مَهَارَةٍ
سِيَاسِيَّةٍ وَأَصَافَ فِي الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ صَعْدَ الْعَهْدِ الْمُسَمَّى ، بِالْعَهْدِ
الْعُمَرَوِيِّ ، أَوْ هُوَ الْأَوَامِرُ الَّتِي أَصْدَرَهَا الْحَيِّفَةُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
لِقَوَائِدِهِ عِنْدَ سَفَرِهِمْ مِنَ الْحَزْبَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَوْصَاهُمْ فِيهَا بِأَنْ يَبْسُطُوا
سِطَّةَ الْإِسْلَامِ لِسِيَاسِيَّةٍ قُلُوبَ أَنْ يَنْشُرُوا الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ فَيَعْرِضُوا

على غير المؤمن :

(١) إما قبول الدين الجديد مختاراً أو في مقابل ذات يعنى من

دفع الحزبية ما عدا ضريبة الدم (الخدمة العسكرية)

(٢) أو قبول السيادة السياسية وفى هذه الحالة يؤدى الجزية

(٣) أو القتال فإذا غلب على أمره فرصت عليه الطاعة

والجزية .

فإذا قولت مهرة العرب السياسية هذه وما كان لهم من شعور
العدالة والرفق الإنسانية — بالوسائل الهمجية التى لا يرال
الغريون يعاملون بها البلدان التى يفتحونها طهرت لـ السيادة
العربية مرفعة لية الجاب ولا يسعنا حينئذ سوى الأعجاب
بالانصاف والسمو اللذين فرض هما الفاتحون الأولون من
العرب والمسلمون أرادتهم وحصارهم على الشعوب التى حصعت
لهم منذ أكثر من ألف سنة .

وبما يذكر عن الخليفة عمر بن الخطاب أنه كان شديد
الحرص على حسن سير العدالة فيما رأى عمرو بن العاص أن يبيع
لنفسه جمع ثروة شخصية كبيرة — بعدما أدار شؤون البلاد عدة
سنوات إدارة باهرة — لم يتردد الخليفة فى مصادرة ممتلكاته
وتوزيعها على الفقراء .

ولقد كانت الصرائف التي تحيي من مصر في ذلك العهد تنفق
كلها تقريباً في مصر نفسها على مخصصات الجيش ورواتب الموظفين
والأعمال الدينية الخيرية والهبات التي تجري على العلماء من جميع
الأديان وعلى معاهد العلم الأولى وأعمال البناء والأشغال
دات المصلحة العامة .

ولا شك في أن هذه الحرية التي جاء بها الإسلام عفت ظلم
مرطبه كانت أكثر سبب لانتشار الفتوحات العربية انتشاراً
سريعاً وكانت أول مظهر حدي لعودة مدناً قدم إلى الوجود بعد
ما عفا عنه الديار وأعنى به المبدأ الديموقراطي الجمهوري
يركليس اليونانية فقد عاد هذا المبدأ بصورة جديدة هي صورة
الاشتراكية العربية الإسلامية التي نحيل العربون بعد ذلك
بأجيال أنهم روادها الأسبقون .

وبعد ما كان المصريون يعتنقون الإسلام حماساً ولا سيما
للعائدة التي تعود عليهم من أعمائهم من الجرية أصبح اعتناقهم
له مجرد عادة وربما اتخذوه ذريعة لنيل مقاصدهم .

ولا ننكر أن العرب بذلوا مجهودات في سبيل صبغ مصر
بالصبغة العربية ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ولا من ادخالها في
حظيره الإسلام بحملتها إلا بضعه وبعد من متأخر كثيراً .

٢ وذلك لأنه ظهر عامل نفسى ذو شأن هو خلق المصرى
وما عرف به من تلكو عرب فى التحول عن عادته التى ألفها
ومن نفور فى توحبها وجهة أخرى . فانه بعد ما أسلم بقى متمسكا
بخليط عجيب من الخرافات الموروثة والأساطير الراحلة فى
عقيدته . وبما لا ريب فيه أن ألوف من السنين عاشها فى الوثنية
والسحر والحين إلى الأسرار المرعونية وعادة الحيوانات لمصنة
المطامة — تركت أثرها فيه

ولقد قيل أن الكائن المحبول الأعظم ثار لنفسه من المطلق
وأن المراعنة وكرهم اتفقوا لأنفسهم كذلك اتفاما
حميا فألفوا بقية من الوثنية واصطرا ما فى صمتر أحقادهم الدين
أسلموا

ونظراً لأن فى الأعماء من الجزبة عما بدأ اعتناق الاسلام
يصح احتيارياً شتاً وثيناً . وعلى مدى الر من صار صاراً صرراً
بالغا بالعرب . وفى عهد حلفاء بنى أمية كثر عدد المعتنقين
للاسلام كثرة جعلت الخلفاء يكفون عن تشجيع ذلك بل إهم
أحدوا يطورون إلى هذا الأمر بعين الاستسكار والريية بسب
الخسارة التى حلت بمدلية الدولة من حرانه .

والواقع أن حصيلة لصر تب فى مصر فى خلافة معاوية هبطت

إلى نصف ما كانت عليه قبل ذلك بضع سنوات أى فى خلافة
عثمان ، ولم يكن هذا القصر ليعزى إلا الى إسلام القبط الذى
حدث فى غضون ذلك . وأكثر من هذا ان بعضاً من الخلفاء
رعاة منهم فى إقامة العراقيين فى سبيل طلاب اعتناق الاسلام
عدلوا عن منح الدين يعترفونه منهم حق الاعفاء من أداء الحرية .
غير أن الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز وكان أنزه خلفاء
بنى أمية عايناً كان يرى عكس ذلك فلما كتب إليه عامله حيان
يقول : « اذا دام الحال على هذا الموال فى مصر أصبح المسيحيون
جميعاً لا استثناء مسلمين فتحسر الدولة الدخل الذى يرد الى الخزينة »
غضب الخليفة من هذه الملاحظة وأنفذ اليه رسولا خاصا وروده
بالأمر التالى : « عليك أن تضرب حيانا ثلاثين جلدة عقابا له على
الألفاظ الى كبتها وأن تقول له أن يعفى من الجزية كل رجل
يسلم فان الله انما بعث سبه رسولا لا جانيا للضرائب » .

وعلى كل حال فان المصريين تنفسوا الصعداء لما حادتهم السيادة
العربية وقابلوها بارتياح طرأ لما حلته لهم من أمن لم يكن لهم
عهد به قط وسبب الظلم الذى بسط لعرب روافه على بلاد كانت
تسودها الموضى المطلقة ولم يخطر لأحد فيها أن يحفظ على
الظلم بعد عهد الملوك اليونانيين الاصوليين الذين حللوا

الاسكندر في حكم مصر .

والواقع إن الإدارة العربية ظلت زماناً طويلاً مصدراً للحير واليسر المادى للبلاد . وإذا كان الرومانيون في القرون التي فضوها في مصر وسادها فيها الرعب والكرب الأدنى والاستغلال قد جعلوا منها مستودعاً للمؤونة من دون أن يحى سكانها من ذلك أقل ربح . ثم إذا كان البيزنطيون بدورهم قد اتخذوها ليماناً أو نوعاً من سجون الإصلاحات السياسية والدينية — فإن العرب أحالوها (مصعاً) ومصعاً وافر الاتح . فقد نهضت الصاعه فيها وهضت التجارة التي أهملت من زمان طويل مهضة حديثة وصارت مصر تصدر غلاتها ومحصولاتها إلى جميع بلدان الشرق الأدنى وإلى سائر العالم المتحضر في ذلك الحين . ونحى المكاسب الوفيرة من وراء ذلك .

ويؤخذ مما قاله المؤرخون عن حوادث ذلك العصر أن مصر جنحت إلى الهدوء والسكينة وأنها شرعت تزيل في طلال السلام واليسر والسامح الذي أثر اللوائب التي حافتها من كل نوع في خلال القرون الماضية .

ونما لا يبارع فيه أحد أن المصريين كانوا من أهدم العصور بحراً بارعين . ولكنى لا أروى عجباً إذا قلت أن العرب كانوا

محيطين بما عمل النوك الى درجة مدهشة . وها هو التاريخ
يقم البرهان على ذلك .

فان مكة من العصور السحيقة لم تكن فقط مهدا للحفلات
الدينية في الحاهلية والاسلام ، بل كانت كذلك مركزا هاما
للتجارة وعمد الصفقات المدلة وحيث أنها واقعة على طريق
التجارة في العالم القديم فكانت تجمع الثروة وتفتبس الثقافة من
البلاد المجاورة لها ، وبذلك صار العرب همضلا موقع بلادهم
المصدرين للسلع الى العالم أجمع ، وكانت القوافل تسافر من
مكة حاملة لبرصة وايرانها نس منتجات الهد واليمن بل والحشة .
وكان العرب ولا سيما المكيون من بني قريش من أرفع
المصارين قبل الاسلام وبعده ، فكان لهم قبل الاسلام نظام
مصرفي من أنقى الأنظمة ، وكان كبار المالين والتجار من
أهل مكة مثل بني أمية والعاصي بن هشام وبني مخزوم وغيرهم
يضاربون في سعر القطع وفي سعر العملة وفي القراضيس الاحدية
بل كانت مهم حرب صعود وحزب نزول في المضاربة بالسلع
الاجبية ، وكانوا يحتكرون الحبوب ويبيعون الساع بالكمثرات .
ولم يكونوا يحملون المعاهدات وورق الفد والسلفيات على
رهون والتسليم بمائة ٨٠ . ولا كان كل ذلك غريبا عنهم .

ثم ان الاسلام حرم الربا والربح الفاحش تحريماً قاطعاً
كما أن الشريعة الاسلامية هت عن جميع أنواع المضاربات ، غير
انه من المسلم به كذا ان هؤلاء العرب الجاهليين أنفسهم لم يعمدوا
بعد اسلامهم عريتهم الأصلية ولم يستطيعوا الجأها أو كسبها
وأعنى بها غريزة حب المال والميل الى الربح وجى المكاسب مما
يخدم عليه أمير كيو اليوم بل بقيت فيهم هذه الغريزة في أوجها
وانطلاقها من كل قيد .

ولم يكن العرب الفاتحون سواء أكانوا أمويين أم عباسيين
أم فاطميين إلا سلافة هؤلاء القرشيين بعينهم مصاري الأمس
وأكر المشتغلين بالأعمال المالية والتجارية في الشرق .
وبعد ما أسلم العرب نقلوا معهم الى البلدان التي فتحوها
عقريتهم المالية المدهشة وكانت الواهى الدينيه قد صيغت وطممت
وأصلحت وعدلت فشجعت التجارة وبثت في اصدار المصنوعات
نشاطاً عظيماً وسريعاً .

وبعد ما كانت مصر فقيرة عادت غنية ولم يعد المال يخرج منها
بل كان يرد إليها كلسيل المدفق فهي مدينة للعرب بالشئ
الكثير بل أقول ان العالم مدين لهم كذا انهم أهدوا الحصاره
القديمة من الخراب بلا مرأه .

أما من جهة الثقافة فإن عهد العرب في مصر كان عهد نهضة وكأنا حدثنا عربياً أعاد الأمور إلى مواضعها ورددت إلى مصر متدعاتها وعلومها بعد ما صلت طريقها في منعطفات بعيدة .

وان يدس لا يدس أن المصريين القدماء هم الذين لقنوا اليونانيين في التعبير عن الفكر البشري وإظهاره وكان فيثاغورس قد حبب للعالم القديم وذهب إلى أساطين مصر وديون قس أن تلقى اليونان عنه ثمل من مف نظرياته لرياضيه الأولى وفي طيبة ذات المنة رب وجد عمله أحسن طارها في عالم النور .

بل ان اليونانيين سوا روح الفلسفة على أساس مصري ولم يكن دلفس مراحمة لطيبة بل كانت تليدة لها . وما تلفسه اليونانيون من المصريين نعمة لعرب بدورهم من اليونانيين بعد ما ذلت حصارة هؤلاء ودمعت بحمهم ثم أصبحوا (أي العرب) بدورهم بعد ذلك مخزعي لعلوم اعلمية واسم تدنها .

فهؤلاء العرب الذين اهتموا بلا حق بحرق مكتبة الاسكندرية وتصحية المؤلفات والتحقف القديمة على مدح تعصم الديني هم وحدهم الذين اقتبسوا بصبر ومثابرة علوم اليونانيين القدماء ذرة ذرة وحرما حرما ونقلوا إلى العالم والشريعة وإلى مصر المهوكة لصعيقه ثمرات فكرها المبدع وعلتها الباهر

بعد ما غيروا شكله ونظموه وأنفذوه من برائن الفناء وأحرقوه
من زاوية النسيان فما جاء القرن العاشر حتى انتشر شعاع
الحضارة العربية وامتد الى اوربا فأفادت منه .

وكان الطلبة يأتون من انحاء أوربا الواقعة في ظلام الجهل
في العصور الوسطى ليتلقوا العلم في قرطبة واشيلية وطليطلة
وكانت مواطن الثقافة العالية والفكر العميق غير مازعة، فان
هذا التقدم العقلي في الغرب بدأ في جنوب اوربا ولا سيما في ايطاليا
منذ القرن الحادي عشر وانبثق النور من قرطبة وصقلية وكانت
مواطنين للعلم ترسلان نورهما منذ القرن الثامن الى شواطئ البحر
المتوسط حتى نابولي والبندقية .

وكانت اسبانيا كلها تقريبا خاضعة للسيادة العربية وكانت
جزيرتا ماجوركا وميسوركا الكبيرتان عريبتين وكانت كورسيكا
ومالطة وصقلية وأجزاء من الساحل الايطالي وتارتو ورنديزي
في أيدي العرب ، ثم أن حوض البحر المتوسط الذي كان
في ما مضى موطأ للحضارة اليونانية أصبح ميدانا لنشاط
الحضارة العربية .

وكان النموذج العربي مبسوطا في صقلية بنوع خاص
وكانت فيها حضارة مزدهرة ازدهار الحضارة في قرطبة وبيداد

والقاهرة، والعرب هم الذين أنشأوا الارستوفراطية الدهنية
والصاعية أيما حلوا .

وكانت معارف العرب في الكيمياء الصناعية واسعة وإليهم
يرجع فن الصناعة واستنساخ المعادن وصنع الخاود والعولاذ
والورق لأن أوربا كانت حتى القرن الحدى عشر تحصل هذه
الصناعات .

وفد اعترف بهذه الحقيقة مؤتكللا العالم الرياضى الفرنسى
الشهير إذ قال :

« كان العرب هم المؤتمنون وحدهم على العالم أجيالا طوالا
و نحن مديونون لتجارهم بأشعة النور الأولى التى اكتسحت
ظلمات القرن الحدى عشر . فهى تلك الحقبة كان جميع الذين «لوا
أبعد شهرة فى الرياضيات قد تلمهوا علومهم بين لعرب » .
وقال لنا ديلامر فى كتابه (تاريخ القلث) :

« ان العرب عملوا من الارصاد الفلكية أكثر مما عمل
اليونانيون فقد كانت عدم آلات حسة للرصد . وكانوا يستعملون
حساب المثلاث عدم فى المسائل الخاصة « لأجرام السماوية
ويلوح أنهم هم المؤلفون الأولون بعدة أساليب لتقسيم رقعة
السما . وهم الذين وصعوا شكلا هندسيا متظا لمذهب الانجهاات

والاشعاعات إن لم يكونوا هم المحترعين لهذا المذهب . .
وفي سنة ١٠٠٨ كان واحد من هؤلاء العرب المدهشين أول
من استعمل الرقاص لقياس الوقت فعده الناس معتمداً في أول
الأمم ولكنهم فهموه بعد ذلك

وفي عهد الخليفة العباسي المأمون عرف مقياس الكرة
الأرضية . والمفروض أن هذا يدل على أن العرب كانوا يعرفون
شكلها معرفة صحيحة . ومن جهة أخرى كانت الكرات
الأرضية المدرسية منتشرة في جميع المدارس العربية في أسيا في
الوقت الذي كانت فيه بيزنطة وروما تعلن أن الأرض
مستوية السطح

ولعل أكون جادة بعض الحد إذا قلت أن العرب هم الذين
اكتشفوا كروية الأرض .

وفي الرياضيات كان علماء العرب ملين بمؤلفات اليونانيين
غير أنهم أضافوا إلى أعمال ايولونيوس واقليدس وبحوثهما
شيئاً جديداً لم يسبقهم إليه أحد وهو الحر أولاً ثم حساب المثلثات
وقد هذبوا هذا الأخير بسبب اشتغالهم بعلوم الفلك . وكانت
العلوم الفلكية أحب اسم إلى علماء العرب .

أما في الهندسة والحساب والعلوم البصرية والآلية فقد تقدم

العرب تقدما ماهرآ وعندما خرجت صقلية من حوزتهم بعد ذلك
نفيت في حاجة الى الاستعانة بعلماء العرب ، فان الأدريسى العالم
الشهير في تقويم البلدان دعى الى بلاطه وجير ملك صقلية
وصنع له خارطة للعالم وكرة أرضية من الفضة ، وظلوا في أوربا
يستغيبون مؤلفاته ومعها ٦٩ خارطة عندما ترجمت الى
اللاتينية لتعليم تقويم البلدان أكثر من ثلاثة قرون .

وذكر أبو العلاء أسماء ٦٠ عالما معروفا من علماء تقويم

البلدان في سنة ١٣٣١

وكان للعرب باع طويل في الطب والجراحة فاشأوا في كثير
من البلدان ولا سيما في أسبانيا مستشفيات تمكن الأطباء فيها
بتنح تحريرهم ونشر بححث من وضع بحوث متينة عليها
ومعبدته وحلت احتراسهم العلوية محل طب الركة ، الذي كان
فاشيا فتشأوا حطرا في أوربا حيث كان تشريح الحث وفحصها
أمرا محظورا كل الخطر

ومارس العرب الطب بممارسة ساعدتهم على الوصول الى
اكتشافات فيه وفي الجراحة أهم مما اكتشف من نوعها منذ
حاليوس .

وفي القرن الحادى عشر عمل أبو العباس خلف عمليات

جراحية لم يحددها جراحو هذا العصر .

وطاف العالم الباقي ابن اليطار في جميع أنحاء الشرق باحث
عن أعشاب طيبة وترك لنا عنها بحوثاً عظيمة ، وحلف لنا ابن زهر
ذكرى مهارته المدهشة كطبيب وفيلسوف .

وكان ابن رشد الفيلسوف صلة الاتصال بين المدرسة
اليونانية القديمة ومدارس العصور الحديثة ، ولو أن جامعة باريس
شجعت فلسفته في تأليه الكون ومؤلفاته كما شجعت الكرسي الباوي
في سنة ١١٩٨ .

وفي القرن التاسع كان الكندي أول عالم أمتار تعمقه في
درس مؤلفات أرسطاطاليس .

وفي القرن العاشر جاء الفارابي وواصل عمل الكندي ، وبعد
ذاك ثلاثين سنة جاء الرئيس ابن سينا وأضاف الى ذلك مذكرة
شخصية لم يسبقه إليها أحد عن التصوف كان متأثراً فيها بدراسات
بودية ، ومع ذلك فان ابن سينا كان نابغة كشاعر وطبيب ورياضي
وفيلسوف وسياسي .

وفي ختام القرن الحادي عشر يبرز الغزالي بفلسفة استلهمها
برمتها من افلاطون ، وأخيراً في القرن الثاني عشر ظهر أحل
فيلسوف قدراً بين الفلاسفة العرب والمسلمين وهو : أبو بكر

س عند الملك بن طهيل القيسي من قبيلة فيس أشهر قبائل العرب
وكان يعرف كذلك بالاشييل والاندلسي .

ثم جاء ابن خلدون — وهو الذي ما رح الناس يبحثون عن
أصله — فأدهش العالم بمعارفه .

وبينا كانوا في بغداد في ملك هارون الرشيد الخليفة العباسي
وملك إسه المأمون يترجمون المخطوطات اليونانية ويتباحثون
في فلسفة سقراط وأفلاطون وفيثاغورس وأقليدس وأكسينوفون
وإرسطاطليس . كانت الحضارة الشربة آخذة في كسب عناصر
جديدة من اتصالها بالهند والصين . وفي ذلك الحين أهدى هارون
الرشيد أول ساعة دقافة إلى أعجمي نابغة هو شارلمان وكانت تدق
الساعات في قصره .

وبعد ذلك أحدث الحضارة العربية Formera Sanut (لأنى لم
أحد كلمة أخرى أعبر بها عن الانقلاب الذى حدث في أوروبا
وشاثر الور التي أخذت تدد الطمات) فاستعملت تعبير فونك
بروتسو الذى وصف به الهمجية التي كانت تغمر أوروبا في القرون
التاسع والعاشر والحادى عشر والثاني عشر إلى الحرب الصليبية
الأولى حينما اتصل أعاجم العرب بالشرقيين وورثة الحضارات
العظمى فأتى هذا الاتصال ثمارا لم تتكرر في الحسان .

وكان أول ما نقله الصليبيون لشعوب أوروبا عن اشرقيين
عناصر أنظمتهم الاجتماعية في خلال القرنين الثاني عشر والثالث
عشر، فدت لأول وهلة في فرنسا و إنجلترا ابتداء من منتصف
القرن الثالث عشر تدلات هامة لا يوجد لظهورها ما يعالها
لو لم يكن الصليبيون قد شاهدوا مثلها في دمشق ومصر ومن
أمثلتها هيآت اصحاب الحرف وطوائف الصباغ.

فقد كانت توحد في وقت الحروب الصليبية في دمشق والقاهرة
وفي جميع المدن الإسلامية الكبرى نظمات للحرف حاصنة
لسلطة بوليس البلدية أو الحسبة، وكان رئيس هذا البوليس هو
المكلف الاشراف على هذه الطوائف. فاشأت كل من فرنسا
وإنجلترا نظام أعضاء البلديات على مثال ما روى في مصر وفي
سوريا العربية.

ولا يخفى أن لويس التاسع ملك فرنسا (القدس لويس)
الذي اشتهر بالذكاء والعلم وكان من أفضل ملوك المسيحيين - هزم
في مصر ثم استرد حريته ونال إذنا بالآقامة في فلسطين سنتين (من
سنة ١٢٥٠-١٢٥٢). فهذا الملك كان يعتم أوقات فراعته
بعد ساعات الصلاة لجمع المعلومات عن النظم السياسية والاجتماعية
في العالم الإسلامي فاستفنى من المصادر الشرفية بقدر ما سمحت له به

عقيدته المسيحية وجوه الاصلاح ونقلها الى أوربا بعد عودته اليها
وهي التي خلعت رداء المجد على حكمه الذي دام ١٧ سنة .

وقد أباها هذه الأنظمة الباريسية . انيان بوالو . في مؤلف
بفيس بعوان . كتاب الحرف . أله في عهد القديس لويس
بعباية حاكم باريس ومساعدته . فمذ منتصف القرن الثاني عشر كان
. جان دي حرلاندي . يهتم بأمر الصناعة في باريس واليه يرجع
الفصل في وضع قائمة بأسماء التجار وأصحاب المصانع ولكن
هيات أرباب الحرف لم تكن قد وجدت بعد بل إنها تألفت
نظامها وشكلت واستقرت بأمر القديس لويس ومن العريب أنهم
قلدوا فيها . هيات الحرف الاسلامية Sarrazins (١)

ولكي تكون لنا فكرة حلية عن مدى تأثير الفوذ العربي
في أوربا أقول استناداً الى أحجار الوقائع الكدسية اذا صحت إن
العادات الشرقية تعللت في مدينة تولوز العظيمة ويؤخذ من
قصه كوانت تولور أنه أثار شكوك . الاساقفة Saints Moynes
فيه لأنه (اغتسل) أو عبارة أخرى لأنه جاب معه من الأراحي
المقدسة عادة من عادات المسلمين أو الشرقيين .

(١) كان Sarrazins من العرب ومنهم Sarrazins وهي محرفة عن كلمة

(سريين) عربية

ولكن هالك حقيقة أخرى لا يصح انكارها وهي أنه
كانت توحيد في طليطة هيئة عاملة شيطنة من المرحمين يرعاها
المطران ريموند لكي تترجم الى اللاتينية أهم مؤلفات العرب
العلمية وبقيت هذه الهيئة ماهضة بمهمتها ثلاثين سنة من سنة
١١٣٠ - ١١٦٠ .

ولم يجمع وحود هذه الهيئة الكرديال اكسيميس في القرن
الخامس عشر من ارتكاب مدحة المغارة والاف جميع المؤلفات
العلمية العربية بحجة أنها رجس من عمل الشيطان .

ربما يقال لنا ان الصليبيين لم يذهبوا الى الشرق ليقتلوا شينا
من المدينة العربية وانه لم يكن لهم متسع من الوقت للتعلم وقد
يعرضون كذلك بأنهم لم يكونوا يأهون لعلوم العرب لأنهم كانوا
برتابون في كل ما يأتي من مصدر اسلامي .

ولكن على فرض احتمال ذلك لا يمكن أن يقال ان الأمراء
الذين ساحوا في اساياف في سورية لم يروا شينا ولم يتعلموا شينا
مما كان يجري على مرأى منهم لا في سنتين ولا في عشرين سنة
بل في متي سنة .

ولا ريب في أن الحرب لم تكن متواصلة يوماً بل كانت
هناك فترات طويلة من المهادنة .

وليس في هذا الرأي تملق لذكاء أمراء الغرب وفيهم أكثر
من واحد كانوا على أعظم جانب من الذكاء والواقع إن
الأمراء المسيحيين ولا سيما أمراء أودسا وانطاكية عقدوا أو اصر
التحالف مع أمراء سورية وعلائها، وبعض آخرون منهم لما عادوا
إلى أوربا تدهت غموسهم وانفتحت عيونهم كثيراً وصار
مواطنهم يطربون إليهم بعين الفضول، هؤلاء الأشراف
اعترفوا بعد تب الشرق فكان جزاؤهم أن حرق بعض منهم أو
حرق أساؤهم من عدم تهمة الهرطقة أو السحر لأنهم جلسوا إلى
أوربا علوما لا يعرفها الرهائن ولأنهم أدركوا أمورا جديدة
وأثروا بها فدفعوا الثمن غالبا.

غير أن بدور الأوكرا القارية المتقدمة من الشرق أثمرت
ثمرا مؤكدا وان يكن اثمارها تم ببطء وأخيرا انتصرت تلك
الأفكار وتكونت منها المدينة الأوربية العصرية التي يقتلون
من أجلها اليوم على ما يلوح.

وقد كتب المؤرخ الشهير ميشليه يقول:

« إن نيجار لحدوك^(١) دهوا إلى آسيا والصليب فوق
أككتهم لا لزيارة القبر المقدس في أورشليم بل لارتداد أسواق

(١) ولاية من ولايات فرنسا القديمة

١ عكا. لأن الروح التجارى تعلب على الكراهية الدينية حتى أن
اسقى ما كلون ومونليه كانا يسكان القود الإسلامية وريحان
المال ولا يترددان في أخذ الفائدة من القود المطوعة شارة
الهلال.

وروى المؤرخ ابو وصيف ان كثير آ من الصليبيين كانوا
يتكلمون العربية وأن أميراً قريب يدعى برنارد دى كستيللو من
المحاربين في فلسطين وسورية كان يعرف العربية ويلم بأدائها وجمع
ملوك جزيرتى صقلية من روجير الكنى وغيلبروم الى فريدريك
كانوا يتكلمون العربية ويستفيدون مما كان للمسيحيين الباقين وبهما
من معارف وعقول عمية.

ثم ان السيد دى جواصيل الشهير رك لسا ووقع مفيدة جداً
في كتابه : « Parabrai Langue Sarrasine »

واذا كان كثير من الصليبيين اهتموا بالبحث عن المحلفات
الأثرية المسيحية اكثر من اهتمامهم بالبحث عن الكتب العلية
فان آخرين منهم لما دخلوا هذه البلاد الإسلامية هتوا رغم
انوفهم بما رأوه من سمو حضارتها.

فريشارد (قلب الاسد) ملك انجلترا الباسل الخفيف الظل
لما رأى تفوق الشرق تفوقاً عقلياً لا نراع فيه أحسن بوجوب

إزالة حجاب الجهل الذي كانت ملاده متحفة به وأدخل هو أيضا
اصلاحات نافعة في المملكة الانجليزية بعد عودته اليها .

ولكى يكون المرء مصفاً بقدر الامكان يجب أن يكون
رأيه صحيحاً عن « المدينة العربية » فليس من الحق تماماً وصفها بأنها
« مدينة اسلامية » بل ان العصرية العربية هي التي ساعدت احيالا
من الرجال المعترين على أن يملأوا حقبة من التاريخ سناء
وسها . وحملوا في حلال هذه الحقبة مشعل المدينة غير مازعين
والواقع ان لا يستطيع ان تصع الترك مثلاً - وقد جاءوا في
ما بعد - في مرتبة العرب فاهم وان كانوا مسلمين وفاحين أيضاً
لم يوهبوا عبقرية العرب بحال ما .

ولبعد الى مصر بعد ما تمككنا عما يدين به العالم للعرب ،
فمقول ان مصر دنت فيها القوة كذلك ونجت من عوامل الفناء
وبدا على سبيلها مظهر الدولة ، ولكن عصر الرخاء واليسر فيها لم
يدم طويلاً بعد ما بدأ بداية باهرة على أثر الفتح ، وفي خلال
الحقبة الأولى من تاريخ السيادة العربية وما جلته للبلاد من
رفاهية وسلام

فقد تلاشت الخلافات يأتحد بعضها برقاب بعض بسبب
الأمهات الدينية والتسديد المتمر في الأسر المالكة على الاسلام

اذ كان العرب يتشاحنون مشاحنات شديدة العنف في ما بينهم
وكان لابد من أن تعود عليهم بالوبال حتى انطقت تلك المنازعات
المستمرة الغزالي الفيلسوف العظيم بعارته هذه الأسيفة . لو تحاب
الناس وعرفوا مزايا الود والرحمة لما احتاجوا الى محاكم للقضاء . .
وما كانت تلك الحروب الداخلية في جملتها سوى مآزعات
بين الأسر المالكة على الحكم ومنافسات شخصية زادت بها تعقيداً
غايات سياسية متناقضة ولم يكن ثمة محيص من أن يكون فعلهم
درعاً بالبلاد . وهكذا انتقلت مصر تناحاً من حكم الى حكم
بين جميع أبناء العم الأفريين من أسرة العرب وأعني هم الأمويين
والعباسيين والطولونيين (١) والفاطميين .

وليسمع لي أن أقف ها هنية لماسة ذكر الفاطميين
واذا كنت قد أشرت بعبارات مقتضبة جداً الى ما يدين به العالم
للعرب فاني أضيف الى ذلك ان مصر مدينة بنوع خاص
لهؤلاء الفاطميين .

أجل أننا مدينون لهم بالمؤرخين والرياضيين والفلاسفة
والاطباء والحويين والعلماء المشهورين في تقويم البلدان .
بل اننا مدينون لهم بالمهندسين المعماريين المدعين وبالصابين

(١) كانت الطولوبويون من أصل تركي

البارعين والصناع المهرة والقاشين المهذبين ذوى الذوق
السلیم .

كذلك نحن مدينون لهم بفحامة لا نظير لها وبأسرة الملك
التي لا تمحى من تاريخ شرقنا هذا العجيب .
وأخيراً نحن مدينون للفاطميين بتأسيس عاصمتنا الحاضرة :
القاهرة

الحديث التاريخي الثاني

الفاطميون

- عيد الله مؤسس الدولة الفاطمية — المعز ،
- لدين الله الخليفة الفاطمي — جوهر ،
- الصقلي فاتح مصر — تأسيس مدينة ،
- القاهرة — تأسيس مذهب الدروز — ،
- ست الملك الوصية على عرش مصر — ،
- عساكر الركبان ،

لست أروى شيئاً جديداً ولا مجهولاً في الواقع عندما أقول
إن دولة الفاطميين أسسها في القيروان — في سنة ٢٩٧ هجرية
الموافقة لسنة ٩١٠ ميلادية — شخص يدعى عيد الله ويكنى
« بالمهدي » زعم أنه من سلالة علي وفاطمة بنت النبي . ولكن
قل من يعرف كيف قصى عيد الله — وبسه هذا غير محقق
بالمرّة — حياة حافلة بالآلام والمخاطر في بلاد العرب وسوريا
ثم كيف لحاً بعد ذلك إلى أفريقيا الشمالية ونادى بعصه خليفة
وأمرأاً للمؤمنين ، وعدى أنه إذا لم يكن هو الذي أشأ

مذهب الشيعة فهو على الأقل مسؤول عن سرعة انتشار هذا المذهب وامتداده وما سببه من مشاحنات دينية وحروب وحوادث سوء التفاهم في العالم الاسلامي .

ومما يستوقف النظر ان هذا الرجل العريب — في خلال ربع قرن — بي مدنا وسن قوايين وأحضع شعونا وقاد حيوشاً وفتح بلدانا وبسط سيادته على الفيروان وفاس حتى صقلية (في ايطاليا) .

ثم مات عبيد الله مؤسس امراطورية الفاطميين في ١٤ ربيع اول سنة ٣٢٢ هـ (٤ مارس سنة ٩٣٤ م) . خلفه ابنه أبو القاسم ولف نفسه بلف « القائم بأمر الله » وجعل من أهم أغراضه في حياته أن يضم مصر الى امبراطوريته .

ولكن الخط لم يسعد القائم بأمر الله في ملكه وذهبت حملاته العسكرية عثا . ولما تعد قوات كبيرة في حملته الثالثة لغزو مصر بقيادة معتوقه زيدان مات بمحاولات هذا القائد بفشل محزن لأن الامير الاخشيدى دافع عنها دفاعا مجيداً .

وفي سنة ٩٤٣ م أعد حملة رابعة غير ان اندلاع نار الثورة في المغرب ونشوب حرب أهلية في البلدان الخاضعة له حالاً دون مضيه في مشروعاته التي أعدها للفتح ومات في « سوس » مقرر

ملكه في ١٣ شوال سنة ٣٣٤ هـ (١٨ مايو سنة ٩٤٦ م)
وخلعه ابنه أبو طاهر اسمعيل ولف نفسه بلبق « المنصور »
وواصل الحروب التي شها الفاطميون على الأمويين في الأسلس
فكان عهد ملكه مشحونا بحروب أهلية آحد بعضها رقات بعض
ومات في ٢٨ شوال سنة ٣٤١ هـ (١٨ مارس سنة ٩٥٣ م)
وكان موته بعلة صدرية على ما يظهر تاركا بعده امرا طورية
تشتعل فيها نار ثورة مستعرة لابيه « أنى عميم » المشهور بلبق « المعز
لدين الله » وهو الخليفة الفاطمي الذي فتحت مصر في عهده

وكان المعز في الثانية والعشرين من عمره يوم ولى الخلافة
وقد وهته الطبيعة جميع أساب الجمال ومسحة كل السحايا الحسة
والدكاء المتوقد والعقل الحصبف ، ولكن ماذا عساه أن يصع
هذا الشاب في أحوال سادتها الاضطرابات من مستهل عهد خلافة
وجعلت مرقفه شافا كملك لأمبراطورية عظيمة نائرة

واتحق أن يعد الرحمن الخليفة الاموى في قرطبة كان يعد
حملة عسكرية ويجهز أسطوله ليهجم به على « سوس » ويستأف
حربه للفاطميين ، ولكن ما كان أشد ارتياح المعز ارتياحاً لم
يكن مستظراً ولا مأمولاً حتما رأى أن حصمه يقف وحها لوحه
في الوقت نفسه امام قوات مسيحية تحاربه ، وبذلك عدل الخليفة

الأندلسي ولو مؤقتاً على الأقل عن تمييز بيته في محاربة المعز .
غير أنه بقي على المعز بعد ما زال هذا الخطر أن يعاني مشاغل
خطيرة وهي الحروب الأهلية الشسة في أرجاء امبراطوريته فوقف
عليها اهتمامه وبخاشه الرأى ومهارته لئلا يهمل أحمد الشعب وأطفاً
مواضع اسعاث النهب واسلأع نار الحريق في جميع البلدان
الخاضعة له

وفي سنة ٣٤٧ هـ أوفد حوهر الصقلي معنوقه فاحتل جميع
المغرب حتى الأفيونس لانتليكي ما حلا طمحه وسنته كما أن
حوهراً أشر السلام في العرب بكل هممة وريما شىء من العطفة
ولكن الطامع عاد الى مصابه على كل حال .

وبعد ما أصبح المعز حراً في امبراطوريته حن الى تحقيق الحلم
المحرب لأسلافه عم جعلته اسرته بأجمعها هدفها الأكبر وبغى
به فتح مصر . وإذا كان أسلافه قد ترددوا في هذا الفتح فقد كان
عنده أمراً مقررأ ولكنه عرف في الوقت نفسه انه عمل يحتاج الى
درس دقيق ومشروع لا بد فيه من الروية وحسن التدبير

على أن الظروف واثته وصادفت مرامه لأن الأمور
كانت قد تبدلت في مصر فتوى الأحثيد بعد ما حاول تأسيس
أسرة حاكمة ودافع عن البلاد دفاعاً الى فيه بلاء حسناً ورد عنها

محولات الغزو التي حاولها الحكام الفاطميون السابقون وأصبح
كافور معتوق الأحشيد وصياً على العرش وصان حقوق هذه
الأسرة الأحشيدية بقمع كل ميل في السلاد إلى الانتفاض أو
العصيان ثم مات كافور نفسه وعادت مصر ف وقعت فريسة لأشد
ضروب الفوضى واختلال النظام .

واتفق أن نفرأ من المصريين الساحطين لجأوا إلى الخليفة
المعمر وسواء اكانوا قد لجأوا إليه من تلقاء أنفسهم أم انه هو الذي
حرصهم على ذلك فان المعمر الرجل الصير أصبح يستقى منهم
الأخبار الصحيحة عن حالة مصر الداخلية ثم اختار الساعة الملائمة
فأوفد رسله السريين إلى أشخاص من ذوى المكاة في القسطة
وقاوضهم في احصاع اللاد له واشترى ولاء بعض منهم بالمال
وأحدث في الوقت المناسب ما أحدث من انقادات بينهم وعرف
كبير يذلل الصعاب معالجا الظروف والحوادث رفق بمجازفا
بلعة خطيرة مع الصدفة محاذرا مع ذلك من أن يؤخذ على عرة
وهذا كله يثبت ان هذا الشاب الذي صادف ظروفأ حافلة
بالمخاطر كان على مهارة عظيمة وذكاء حارق ومعارف واسعة
بالشؤون النفسية لم يبرق مثلها كثير من رؤساء الدول .

نعم انه كان لا يزال للأحشيديين عدد جم من الأنصار

في المصططاط وجيش كبير متأهب لتأييد ادعائهم كان على المعز
أن يحسب حسابه ولكه لم يعأ بذلك لأنه كان يشعر بأنه
لاعب ماهر بل طهر أنه كان كذلك مخاطراً قطعاً ، ففى لعبة
الشطرنج التى لعبها مع القدر كانت فى يده أعظم ورقة رابحة
تهديها العناية دائماً الى الدين برضى عنهم وهى ، الحظ .

غير أنه يحس ما أن لا يحطى ، فى فهم صفات المعز فقد عزأ
إليه بعضهم أموراً كثيرة لم يفعلها اللهم إلا إذا كان قد دبرها
وأعدها مقدماً ، وكل ما فى الأمر أنه نحى الوقت الملائم لتنفيذها
كما أنه احتار الرجال الأكفاء الذين يصلحون لخدمته . وليس
هذا بالشئ اليسير .

فهاك كثير من الناس يؤكدون لك مثلاً ان المعز فتح
مصر وأنه أسس مدينة القاهرة وأنه أشأ الأزهر الشريف إلى
غير ذلك .

ولكن المعز فى الحقيقة لم يكن فاتحاً ولا نصيح مقارنته
بعمروس العاص مثلاً ولا بحالد بن الوليد ولا بطارق بن زياد
ولا بالظاهر بيبرس الذى لم يكن عربياً ولا بعد الرحمن فاتح
الاندلس ولا بصلاح الدين يوسف الأيووبى وهذا لم يكن
كذلك عربياً .

ومع ذلك اذا كان المعز قد نقصته العبقرية العسكرية التي
تصطنع الفاتحين وتجب الجنود العظام فانه كان متحلياً بمعرفة
واسعة للرجال وللأشياء يضاف اليها حسن دبلوماسي مرهف وعلم
غزير ومواقف ادارية من الطراز الأول وهي الصفات التي
تصطنع عظماء رجال السياسة .

وكان المعز علاوة على ما تقدم كريماً متسامحاً ولكنه ماهر
في حساب العواقب طامح الى أن تكون له في صفحات التاريخ
شهرة في البراعة السياسية ، والواقع انه ألتبس عهده حلة قشبية من
جمال ثقافته وحصافة عمله إذ ساعد على تقدم العلوم والآداب الى
حد كبير لأنه كان يحسن تدقيق كل ما هو جميل .

غير ان التاريخ كسف شيناً من سناء شهرة المعز كأمر حليل
ومشجع عظيم للأدب والهن بشهرة رجل آخر شاءت مخيلة الشعب
أن تكال مفرقه بأكاليل من الأساطير وتعمروا اليه المحامد
ونعى به هرون الرشيد الخليفة العباسي مع انه كان رجلاً متقلب
الاطوار فظاً وهما صفتان لم يعرف بهما المعز .

ولكن لا عرابة في ذلك فان التاريخ نسب الى المعز صفة
الفاتحين وهو لم يكن منهم على الإطلاق ، وفي الوقت نفسه نقول
ان التاريخ روى لنا عدة أمثلة لرجال طموحين الى المجد وضعوا

مشروعات ضخمة ولم يتح لهم الحظ أن يمجّدوا الرجال الذين
ينعدون مشروعاتهم. أما المعز فوجد صالته المدشودة في حوهر
الصقلى هذا الذى شرف بفعاله عهد مليكه.

ذلك أن جوهرًا كان من أقدر رجال الحرب في الاسلام
وسيظل اسمه بارزاً يطلق نوراً على مجد المعز فهو من هذا القليل
يشبه بلير يوس^(١) الذى احتلط بمجده بمجد الامراتور يوستيان
ومعنى هذا ان المعز صار فاتحاً يعمل جوهر، وليس الخليفة المعز -
بل هو جوهر الذى سار على رأس ١٠٠ ألف مقاتل وقطع بهم
الصحراء الليبية واستولى في طريقه على برقه في ١٤ ربيع أول سنة
٣٥٨ هـ (٦ فبراير سنة ٩٦٩ م) ثم هزم جيش الأحشيد في سفح
أهرام الجيزة في ١١ شعبان ٣٥٨ هـ (٣٠ يونيو سنة ٩٦٩ م)
وبعد ذلك بثلاثة أيام دخل القسطنطينية.

وحوهر هو الذى لم يرق له موقع القسطنطينية في شمالها في
مدى ثلاث سنوات من سنة ٩٦٩ الى سنة ٩٧٢ م مدينة العاصمة
لمجد سيده وأطلق عليها اسم «القاهرة».

وهو كذلك الذى بنى الجامع الأزهر فكان ولا يزال الى
أيامنا هذه أعظم مركز للثقافة الفقهية في العالم الاسلامي.

(١) بلير يوس الامبراطور يوستيان الروماني (من ٥٠٥ الى ٥٢٥ م)

وأخيراً نقول ان جوهرأ هو الذى اتى للملكة قصر
الخلفاء الفاطميين فى القاهرة ومع ان هذا القصر لم يبق منه
حجر على حجر فان الذين دونوا حوادث عصره وصفوا لنا
ما كان فيه من أسباب الفخامة والحلال.

وأود أن أضع أمام القارىء فكرة عن ذلك القصر اقتباساً
مما عرف عن عواهل الفاطميين من حب للعظمة والآبهة .
كان القصر فى ذاته مدينة كاملة المرافق تشتمل فى حمة منها
على قصر يسمى « قصر الشرق » ، أو « القصر الشرقى » ، وقد وصفه
مؤرخو ذلك العصر بأنه مبنى عجيب وحجم يحتوى على ٤٠٠٠ غرفة
وهو رقم أقرب الى الخرافة منه الى الحقيقة

وفى هذا القصر كان يقيم الخليفة وتقيم معه زوجته
وانساؤه وعبيده واماؤه وقربانه ، وهؤلاء كانوا يحصون بعدة
ألف

والى جواره قصر الشرق ، كان يوجد ايوان ، يسمى « ايوان
الذهب » ، كان الخليفة يجلس فيه على عرش من الذهب ويعقد
الاجتماعات ويستقبل السمراء الاحانب ، ولا يخفى ان بين هذه
الفخمة وما كان عليه خلفاء الاسلام الاولون من بساطة
فرقا عظيماً كما ان الديمقراطية الاسلامية كانت قد أصبحت من

ذكریات التاريخ .

وفي جهة أخرى كان يوجد قصر يقال له « قصر الغرب » وهو الدار المخصصة لثمة أميرات الأسرة الفاطمية وللأعراس وللحفلات الدينية ، وكان هذا القصر بطل على الحدائق التي عرسها كافور الأختيدي وعلى ميدان لساق الخيل خاص ببلاد الخليفة .

وكان يتوسط قصرى الشرق والغرب ميدان يدعى « بين المصرين » ويتسع لعرص ١٠٠٠٠ حدى ، وموضع ذلك الميدان هو المكان الذى يشغله الآن « سوق الحاسين » وإلى الغرب منه كانت توجد دور الصنعة (الترسانات) الخاصة بالخلفاء والايوان الذى كان يضم مكتبة الفاطميين المهمة وقد حرقت فى عهد الخليفة المستنصر .

وأخيراً كان يوجد على مقربة من الجامع الأزهر الضريح الخاص الذى بناه المعز وأودعه بقايا أجداده وقد أتى بها من القيروان .

وبعد ثلاث سنوات من فتح مصر على يد جوهر قرر الخليفة المعز أن يزور مملكته الجديدة فوصل إلى مصر حوالى شهر ديسمبر سنة ٩٧٢ ودخلها بموكب عظيم دخول الطافرين على رأس

جيشه وحرسه الخاص من المعاربة وحوله أباؤه الأربعة
شاكي السلاح وأمام هذا الموكب عدد من الصيلة ، فأصيئت
الفسطاط بالأنوار استعدادا لاستقباله غير أنه تجنبها وعبر الليل
الى الروضة على حسر أقامه جوهر لهذه الغاية .

وبلغ المعز مدينة القاهرة فحياه الشعب والجيش وقصد الى
القصر الذى أعده له جوهر وأشرفا اليه فى ما تقدم ، وكانت
الحملة الأولى — على ما قال مؤرخو حوادث تلك الأيام — عارة
عن موكب من حملة الهدايا التى قدمت اليه من أعيان البلاد
وأنفسها الهدايا التى قدمها جوهر فمر أمام الخليفة . . . جواد من
أصائل الجياد وعليها سروج مطرزة بخيوط الذهب ومرصعة
باللآلى ، وخيام من الحرير المطرز بالذهب ويبارق برلت فى أعوادها
حجارة كريمة .

وظل سكان القاهرة والمسطاط يقيمون معالم الأفراح
ترحيبا بملكهم الجديد أربعين نهارا لياليها وفى خلالها تبرع
الخليفة بعطايا كريمة وصدقات ورعت على الفقراء والمحتاجين .
وفى مقدمة ما اهتم به الخليفة المعز بعد وصوله الى البلاد أنه
أباح تجديد بناء الكنائس القبطية بل قيل : أنه شهد بنفسه وضع
الحجر الأول فى أساس كنيسة المعلمة فى مصر القديمة .

وكان الفاتحون الأولون من العرب والحكام في الدول
السابقة أنشأوا في البلاد نظام البوليس اللدى ، الحسة ، فأضاف
اليه المعز وطائف وواححات حديدة ومها وظيفة الخفارة أو
الحراسة وعلى قائدها أن يرتب دوريات ليلية في المدن من الخفراء
للمحافظة على الأمن العام .

وعلاوة على ، المحتسين ، أو حكمدارى البوليس أنشأ وظيفة
مساعدة هي وظيفة ، العرفاء ، أو الخبراء أو المفتشين المساعدين
وكان من اختصاصهم أن يجمعوا عش المواد الغذائية ويحولوا دون
ارتكاب حوادث التزوير أو يعتقلوا مرتكبها

وهذا الطام جعل الخليفة للمحتسين والعرفاء سلطة مباشرة
على اصحاب مخازن الادوية و ، الشربلية ، وباعة السمن والزيت
والرندة والفاكهة والقصابين ونجار الأقمشة الصوفية والكتانية
والحريرية والسماصرة والدلالين والنساحين والحائكين
والصاغين والسروجية والاسكافيين والحدادين والنحاسين
وتجار الرقيق والماشية .

وعين الخليفة عمالا حصوصيين لمراقبة الاطباء والجراحين
وأطباء العيون والحمامين والمذلكين والمدرسين العموميين
وكان على هؤلاء العمال كذلك ان يتفقدوا الحمامات العامة

والصهاريج والآبار والأسبلة

ورود الخليفة المحتسب ثلاث أدوات لمعاينة مرسكى العش
والتزوير وحياة الأمانة، وهى الجلدة، والكرماح أو السوط
وثالثها وأعرسها، طافية المضيحة، أو، الطرطور، ١

وهذه الطافية كانت من لباد مكسو بقطع من الفهاش كثيرة
الالوان وقد ربطت فى محيطها جلاجل أو أحراس صغيرة
وذيل قط أو ثعلب، وكان ينصى الحكم بأن يطاف بالمحكوم
عليه فى شوارع المدينة وساحاتها وهو راكب على حمار وعلى
رأسه هذا الطرطور الزخرفى لى يراه عوغل الساس ويقابلوه
بصيحات الاستهزاء والسخرية وبعد ما يتم تنفيذ العموبه تقام حفلة
يعلق فيها الطرطور أمام دار حكمدار الولىس ارهايا للأشقياء.

وهذه الوسيلة حكم المعز امبراطور به بالعدل والحكمة وفى
الوقت عينه أدرك وحب تعزيز الجيش فزاد عدده وجعله على تمام
الاهة فى جميع أجزاء الامبراطورية فصاها بذلك من مطاعم
الطامعين بل انها اتسعت وامتدت من قاس الى سوريا.

وكانت سوريا مد حكم الدولة الطولونية إيالة تابعة لمصر
وبقيت تحت حكم الفاطميين الى القرن الحادى عشر حينما عاد الترك
الى الظهور على مسرح تاريخ الشرق باسم الدولة السلجوقية.

وتوفي المعز في سنة ٩٧٥ م وهو في السادسة والأربعين من
عمره أي في قوة رجولته بعد حكم كان من أروع الحقب في
تاريخ مصر والشرق العربي وحلقه ثلثي أثنائه واسمه الناصر وأحمد
لنفسه لقب العرير بالله واحتهد في افتقاء أثر سياسة أبيه ولكن
لم تنسك له حصرة عمله ولا حدود ولا همته ومضاء عزمه.

وفي أثناء حكم المعز حدثت فتنة أوفد بارها هفتكين وهو
تركاني حاول أن ينشئ إمارة مستقلة ويحج في الاستيلاء على
سورنا الخوئية واحتل دمشق وتحالف مع الصرامطة (١) إذ كان
لهؤلاء مطامع قديمة في مصر وكان خطرهم يقلق بال الفاطميين.

فكسب بطنش العرير بهفتكين وحلفائه استنجد بحوهر الصقلي
صاحب الماصي المجيد وفائد جيش أبيه. وكان حوهر قد اعتزل
مصه في السنين الأخيرة من حكم المعز لسبب عامص وربما
لوثابه واش.

وحند رجع حوهر على سوريا واسترد موقع عسقلان
الحصين فحاصره هفتكين ورأى الخليفة الشاب أن يذهب إلى
هناك بنفسه في سنة ٩٧٧ م ولكن حوهر تمكن من فك الحصار

(١) هذه مطامع قديمة في مصر وكان خطرهم يقلق بال الفاطميين.

في سنة ٢٨١ هجرية

عن عسقلان وحشد قواته على مقربة من الرملة ولم يتردد في
مقابلة قوات العدو رغم تفوقها العددي واشتدك هذا القائد المحرب
بالأربعين ألفا من المصريين والمعاربة والعرب مع همته
والقراصة في أودية الرملة ودارت بين العريفيين معركة أسفرت
عن انتصار جوهر وهذا الانتصار أهدى الأسرة الفاطمية
وعرشها ووطد سيادتها على سوريا .

وكانت معركة الرملة المتقدم ذكرها أعلى ما بلغته قوة
الفاطمين العسكرية والفصل باجمعه فيها لعقريه جوهر التي كلل
بها هامة وأتم بها خدمته .

بعد ذلك وكل العزيز ادارة شؤون الدولة الى وريره العدير
ابن كلس وهو يهودى اعتنق الاسلام وأخذ هو ينصرف شيئا
وشيئا الى العزلة والحياة الخاصة ليتابع دراساته للفلسفة والرياضيات
لأنه شغف بها كل الشغف ، وجلب في حلال ذلك كثيرا من
المخطوطات النادرة راد بها ثروة المكتبة التي كانت من المكتبات
العامرة من عهد أسلافه وشجع رجال الفنون ورعى العلماء
وبعد ما قضى في دست الملك ٢١ عاما توفى في بليس في
سنة ٥٣٨٦ (١١٩٦ م) .

ولكن هذا الخليفة الفيلسوف ترك كرسيه لرجل معتوه

لسوء حظ مصر خاصة وتاريخ العرب عامة وهو أبو علي المصور
النسيير بلقب الحاكم بأمر الله ، فقد كان رجلاً قلباً غريب
الأنوار متفصلاً في الشر ، ارتكبت في عهده سلسلة من الأخطاء
الباعثة على الأسف وكان عهد حكمه عهد اضطراب وهوس .
ويؤخذ بما وصفه به مؤرخو عصره أنه كان رجلاً مهيب
الطلعة مديد البامة ذا عيين لالون لها ويشع منهما ريق كبريق
عيني أسد فلا يستطيع حليسه أن يحدق فيهما أو يتحمل شعاع
ريقهما وأجمع المؤرخون على التوبة بعراة حدقبه حتى أن
لخطه يامع في السلام كما يجمع حطات بعض الصواري ذات العيون
الفوسفورية .

ولعل المراد بكل هذا الوصف أن يقول الواصفون أن
الحاكم بأمر الله كان ذا عيين حميتين ، أما هذا اللحن الفوسفوري
فربما كان صفه أسعها عليه مؤرخ مولع باختلاف العرائب وراه
بحث عن صفة عم به لهذا الخبيثة لكي يريد شدوذه رورا .
والواقع أن الحاكم - بقطع لطر عم قيل عن عينيه العجيتين -
كان رجلاً غريباً شاذاً إذ لم يكذب يفتنى على العرش بصع سوات
حتى أصدر فتاة طائفة من التشريعات والأوامر كل منها أشد من
الآخر دلالة على غيائه واختلال عقله .

منها أنه أمر بأقفال الاسواق والحواريات والمخارب نهاراً
وفتحها ليلاً، ومنها أنه حذر على لئسا السور وفرص عليهن
الحجاب قسراً ولم يكن احجاب معروف بالمرّة في مصر قبل
عهد هذا الحاكم بأمر الله. ثم منعهم من رفع صوتهن وأمر بأن
لا يتحدثن إلا همسا ولا يخرجن من بيوتهن وتوعدهن
بعقوبات لا يسبقها العقل. ولكي يستوثق من تنفيذ أمره الصادر
عن هذا الحنون المطلق أمر صنّاع الأحذية بأن لا يصنعوا
أحذية للنساء وهدد من يخاف ذلك منهم بالاعدام!

ومن الأحبار التي كانت ذائعة آثد - ولو أنها عاحنة الى
دليل - يؤخذ أن الحاكم كان يحب امرأه ولكنها كانت بمقتة
فأن أب يثار لفسه من جميع النساء غير أنه لا يمكن التحقق من
ملغ ما لهذا الانتقام من نصيب في سلسلة النواهي السحيقة
التي أصدرها.

ومن أعمال الحاكم أنه أكره الصاري واليهود على حمل
علامات تميزهم عن غيرهم بحيث يمكن رؤيتها من بعيد وأمر
بهدم الكنائس ومعابد اليهود في جميع أرجاء امبراطوريته ثم عاد
فسمح بتجديد بنائها واعترف لرعاياه بخرية اعتناقهم لما يشامون
من الديانات.

ويدهي انه ما كان ممكناً أن يسود عهد هذا الخليفة هدوء.
في الأحوال المتقدم ذكرها فكثرت حوادث الشغب وتعددت
الاضطرابات في أثناء حكمه وعمت امراطوريته كلها تقريباً ، واني
أكتفي بها بذكر حادثة واحدة كان حرباً أن تكون ذات
عواقب خطيرة لولا انها أخفقت .

وتفصيل الحادثة ان أميراً أموياً يدعى أنور كوه طرده
خليفة قرطبة فلجأ الى أفريقيا وجمع حوله بركة جماعة من المغاربة
والعرب ثم قصد عزو مصر وبلغ مصر كره أسوار القاهرة فعلا
وبادر الخليفة العاطمي لطلب من سوريا مدداً من الجند على عجل
فصدوا العازي وأنفذوا العاصمة في الوقت المناسب .

ولكن ما كاد هذا الخطر يتلاشى حتى عاد الخاكم فانهمس
في حماة غرائه الدينية وبعد ما كان شعبياً انقلب سنياً ثم غير
رأيه وعاد شعبياً راعداً انه الرسول السام خاتمة رسل الاسماعيليين
ثم أنشأ في سنة ٥٣٩٥ (١٠٠٤ م) ما دعاه دار العلم ، لكي
يتحد معها وسيلة لنشر المذهب الاسماعيلي وحاول أن يجعل هذا
المذهب ديناً رسمياً للدولة .

وفي نفس ذلك الوقت نشأت ديانة الدروز ولا بعد أن
يكون الخاكم بأمر الله هو مبدعها لأن الدروز لا يزالون حتى اليوم

يعدونه ، الآله المتجسد في صورة انسان .

وحسم الوهم للحاكم اعتقاده بأنه ذو شأن خاص وأنه تأله
فخاة فصار يأتي أعمالا كانت من شدة نافرانها بحيث لا يستطيع
عقل سليم المطلق أن يدرك لها معنى مقصوداً .

وكان في حملة مستشاريه رجل كبير مسموع الكبة عده
يدعى ، درازي ، اختلف المؤرخون في أصله فمنهم من قال أنه
كردي ، وقال بعض منهم انه من الصابئة ، وزعم آخرون انه
تركي ، ونقطع النظر عن هذا الاختلاف في جنسيته هناك شيء ، يحقق
هو انه كان من شيعة الاسماعيليين .

وهي ذات يوم قصد درازي هذا أن يشر في مساحد الماهرة
مكتوما منهم العبارة قال فيه ان روح آدم تقمصت في علي زوج بنت
البي ومنه انتقلت الى الفاطميين عامة وإلى الحاكم بأمر الله خاصة
وأنه سيظهر يوماً في صورة فائقة للطبيعة ، إلى غير ذلك من
الخرافات . وبما لا يحتمل شك ان الموعر بنشر هذا المكتوب
هو الحاكم نفسه .

ومعلوم ان تأليه الملوك وبسة الخصائص الفائقة للطبيعة
اليهم من الأمور التي بطلت وأبجى أثرها بعد انقضاء عهد الفراعنة
ومن جاء بعدهم وأباطرة الرومان ولم يعد الناس يذكرونها بل

ان المصرى نسي هذا التأليه بعد ما اعتنق الاسلام أما العرب فلم
يسكن التأليه يوماً من الأمور التي تروق لهم ثم جاء التوحيد
الاسلامى فلم يعرف بفكرة تجسد الله الأحد في خليفة بشرية لأن
ذاك لا يترك أن يتفق مع وحداية الله غير المتحرثة .

ولذلك ما كاد الشعب يستمع لما في المكتوب حتى رأى
ان المراح في هذه المرة تجاوز الحد فثار ثائر غصه وهب
السامعون كرجل واحد واندفعوا بقوة على هذا الأحرق
ولكن درارى كان قد أسرع الى الفرار ولم ينج إلا بكل عاء
من موت محقق ، أما أنصاره فأعمل الناس فيهم يد القتل وحرقوا
بيوتهم بعد ما سهوها .

ولكى يبعد الحاكم بأمر الله صيعته سهل له سبيل الحرب الى
سوريا فتحاً الى لسان حيث وجد له أتباعاً فأشأ مذهبه الدينى
واشتهر أباء اولئك الأتباع أو الأنصار باسم « درازى » ومنه
اشتقت كلمة « درزى » وكلمة « درور » المعروفة الآن .

أما الحاكم العرب الأتوار ذو العينين العجيتين فبنى بالأفلاس
في جنونه بالعظمة وتجددت في عهده حوادث الشعب المتواصلة
وأصبح اسمه في التاريخ مذكوراً كما تذكر فشريعة الحمى
الخنيفة الى تصيب الجسم واحتمى فحاة من المسرح إذ قتل في

حدث لم يسجل سره في ليلة ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (١٣ فبراير
سنة ١٠٢١ م) .

وبرك الحاكم لأبيه الشاب اليافع أنى الحس على الظاهر عرشاً
مثقلاً بتركه من الأخطاء وعاصمة تغلى غليار الصدر وورراء
يرتعدون فرقا وضائطاً مستعدين للفرار وهى حالة لا تدعو الى
الغفلة .

ومن أعرب ما يدكر عن نهاية الحاكم ومن سحرية
الصدر وانتقامه أن امرأة حلقته على ادارة شؤون امبراطوريته
واصلاح ما فسد وهو ذلك العدو الالذ للنساء وهذه المرأة هى
أخت الحاكم وقد بجحت بما أبدت من رباطه حشش تبعث على
الاعجاب فى انقاذ دولة الفاطميين واعادة النظام إلى نصابه
فى البلاد .

وقد طر بعض من المؤرخين ان لهذه السيدة صلماً فى مقتل
الخليفة ، ولكن هذه التهمة أو هذه التهمة لم يقم عليها دليل ما .
وبما قاله هوارت ، فى كتابه ، تاريخ العرب ، عن موت
الحاكم ، ان الحاكم اغتيل غاماً فى حبل المظم ولكن يظهر
أن اغتياله لم يكن بأعز أخته كما رعم بعضهم .

ورغم ان هذا المؤرخ لا يتسعر بميل للعرب فانه قال : ان

اسه لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره وان عمته صارت وصية
على عرش المملكة وكانت امرأة قوية العزيمة شديدة السكينة
فاعادت النظام الى البلاد بعد ما أعدمت عدداً من الصباط
المحركين للاضطرابات فاستنبت السكينة بفعل تدابير شديدة
اتخذتها ضد محدثي الفتن دون سواهم .

وفي تاريخ الشرق أمثلة لكثير من النساء اللواتي امترن
بالدكا واستطعن في الساعات العصية أن ينفذن دولا من
الاهيار وقصص على دقة الحكم بد الراعة والحكمة مما يحسدن
عليه كثير من الساسة

وهنا يحيل الى ان العارى يتسم لقولى هذا ، فأود أن
لا يحمره ظن بأبى أدامع عن قصة نسوية ، غير انه من الجهل
بتاريخ الشرق عامه وتاريخ العالم الاسلامي خاصة أن نجحد أو
نكار أو نذكر الخدمات التي أسداها بعض من عظيمات النساء
أو الصيبي الذي لم يحق في مجد الشرق وهو ما يسوع لسا أن
يفتحه . وعند ما يرى في أثناء الاوقات المضطربة المرزومة
رجال مترددين — امرأة تخرج من خدرها هذا الخلق العظيم
فتتولى عمل الرجل وتنت فيه روح الشجاعة وتحمل الحزم محل
التردد والتغفل في الاعمال وتنفذ البلاد من السقوط — نقول

إنما عدا ما نرى هذه المرأة يجب أن تصفق لها بكتفها اليمين
ونعجب بها إعجاباً قوياً لا نحفظ فيه .

ذلك لأن أمثال هؤلاء النساء من نوع استثنائي وندر
بما يدل على أن الطبيعة صنية من فلا تجود على الانسانية في كل
حيل إلا بواحدة من هذه الحلات العجيبه كأنما هي تريد ان
تقدم الى الرجال المستضعفين مثلاً يحتذونه أو تلقى عليهم درساً
قاسياً يتعلمونه .

والواقع أن هذه الأميرة العربية الماوية الهمة التي عرفت باسم
« ست الملك » اضطلعت بهمة الولاية على الخليفة العاصر وحملت
عبء الوصاية على عرش امراطورية القاطمين وهو عبء ثقيل
فأمرت على أثر موت الحاكم رجال الحرس المغربي والفساط
الدين كانت في الغالب قد احتزرت أماتهم واستتست ولاهم
باحتلال دواوين الحكومة وعزلت مديري الأقاليم وأحلت
معتوقيهما الخصوصيين محلهم . ثم حقت الضرائب عن عائق
الشعب المرهق بها وحطرت الاجتماعات العامة ونهت عن
المباحثات والمجادلات الدينية فقصت بذلك على أسباب الدين . وبعد
ذلك بحثت عن مثيري الاضطرابات واحتصت رعماءهم بطشها
فلم تمض الا بصع سوات على حكمها حتى أستتببت السكينة في

البلاد وداق الخليفة الطاهر في حياة عمته طعم الراحة ، وكان
الفضل في ذلك لعد نظر هذه السيدة القدرة وحكمتها ، ثم توفيت
حوالي سنة ٤٢١ هـ (١٠٢٠ م)

ولكن لسوء حظ هذه الدولة حطر للخليفة الطاهر حاطر
مشؤوم وهو أنه استبدل بحرسه المغربي جماعة من مرتزقة ترك
وألف من هؤلاء حيثما حقيقيا راحبا انه ، دحاله هذا العصر
الاحي يستطيع أن يحتفظ بسلامة امراطوريته الواسعة
لاعتقاده أن هذا العصر ليست له ثارات قديمة يسعى الى الاحد
سها ولا حنوق يدعيها ، ولأن الخليفة كان من جهة أخرى قليل
الثقة بأبناء حده .

ومن الامور الغريبة ان التاريخ يروي عن العرب أنهم
لا يثمنون بأنفسهم وانهم يتطاحنون دائما في ما بينهم وينشون
أحقادهم القديمة ويتحدون من ماوساتهم معولا يفوضون به أركان
وحدتهم ويقضون على ما بقي لهم من اتفاق .

وقد يقول قائل ان هؤلاء الترك المرتزقة أسدوا للعرب
خدمات حلية لأنهم كانوا في ساحة القتال يرجحون كفة الصر
ولكنهم كانوا في غير ساحة الحرب يقتلون في ما بينهم فيتدخل
المعاربة والعرب ويعيدون السلام الى نصابه ، وحينئذ كانوا

يتحولون الى الشعب فيحدثون بينه حرباً أهلية أو يتحولون
إلى الخليفة فيحدثون الثورة في أحط أشكالها. وانتهى الأمر بهم
على مر الأيام أن لعوا أشأم لعه إذ صاروا شيئاً فشيئاً سادة
مطلقى التصرف فى الامبراطورية

ولا تنكر ان الترك جس ونح واهم متحولون بصفات
حرية من الطراز الاول غير أنه تقصم شعلة العنصرية العربية
وما امتاز به العرب من غريزة سامية للاستعمار وليست لهم كبسة
العرق وفنه وعقله وفكره

غير أن الترك رغم ذلك كانوا قوة هائلة ولهم فى تاريخ الشرق
خدمات لا تنكر إذا هم دافعوا عن الاسلام بسيفهم المصلت
دفاعاً باهراً لم يحابوا فيه أحداً ومن عى البصيرة أن لا يرى هذا
كله ومن ملادة الفهم أن لا يفهمه إلا أن بين العربى والتركى مع
هذا فرقاً شاسعاً واختلافات يجب أن تدركها الافهام ولعل
كثيراً من الناس لم يدركوها بسوء الحظ

وانى عندما أذكر . الترك . ها أرحو من الفاري . أن
لا يسى . فهم ما أقول . فأنى لا أفصد السلحوقين الناسدين الأبحاد
الذين قاتلوا فى الحروب الصليبية بكل اخلاص وشجعوا الفسوف
الجميلة والآداب فى البلدان التى بسطوا سلطانهم عليها حتى القرن

الثالث عشر .

كما انى لا أقصد الممالك الذين يوصفون عادة بأنهم برك
وحقيقة الأمر انهم من القرم أو شراكسة . كلا . لا أريد أن
يحتط الأمر على القارىء . فان هذين الجنسيتين يختلفان اختلافاً
تاماً أحدهما عن الآخر

أحل ان ينترك والشراكسة يود عظماء وفوارق محب أن
لا تعب عن السال ولعلها غابت للأسف عن كثير من
الناس مما أدى أحياناً إلى إهمام عريب في تاريخ الشعوب عامة وفي
حياة الأفراد خاصة . غير ان هذا شئ آخر

فاذا تحدثت اذن عن الترك في ذلك العصر السحيق فاعلموا
أنا أوصد المرتزقة أو الميليشيا أو التركمان والذين كانوا في خدمة
الحليفة الظاهر وكانوا قوما لا يفقهون للظلم والطاعة معنى بل
كانوا قوما جشعين محين للسلب والنهب

وقد عرف الحليفة بأمرهم ولكن بعد فوات الوقت ولما
أيقن بما كان منهم نال منه الرعب فمات في ١٥ شعبان سنة
٥٤٢٧ (١٣ يونيو سنة ١٠٣٦ م) وكان موته في الوقت
المناسب حتى لا يرى عيبيه أشنع مارواه التاريخ من حوادث
السلب والنهب التي وقعت في عهد أبيه انى تميم الثاني الملقب

المستنصر بالله ، وقد كان من هؤلاء الأمراء المحبين للآلهة والعظمة
الموصوفين بلين العريكة والدين حاتم الخط .
وتاريخ هذا الخليفة معروف ولعل كل من وقف على
تاريخ تلك الحادثة العربية ولعل المصري من الذين لم يطلعوا عليها
ولذلك فأنى سأعى بأن أرويهما فى الحديث الآتى

الحديث التاريخي الثالث

نهب تاريخي في عهد الخليفة المستنصر

بالله — ثورة الجنود المرتزقة من الأتراك —

بيع كنوز الخلفاء الفاطميين بالمراد العلى في

القاهرة — تبديد مكاتب ملوك العرب في

القرن الثاني عشر — خاتمة الفاطميين

كان الخليفة أبو نعيم المستنصر بالله في الساعة من عمره

عندما حلف والده الظاهر في الخامس عشر من شعبان سنة ٥٤٢٧ هـ

(١٣ يونيو سنة ١٠٣٦ م)

وإذا كان قاصراً تولت والدته الحبشية حكم الوصاية

ولكنها لم تصف بالذكاء الحارق ولا بشجاعه الرحولة كسيدة

الملك التي أرادت النشء بها فسادت شؤون الدولة دون رقابة ولا

حكماء . فما أن رأت هذه الأميرة بحماها يرفى درجات العرش

حتى أساءت الحكم الى حد كبير فصبح الجنود المرتزقة الأتراك —

وهم بضعة آلاف (ثلاثون ألفاً) — ممن كانوا يعملون في خدمة

الخليفة تحت إمرة قائدهم الظموح ناصر الدولة أحمداني وقبضوا

على أزمة الحكم بعد اضطرابات خطيرة ولم يشؤا أصبحوا
السادة المطلقين في القاهرة.

ولما بلغ الخليفة سن الرشد — بعد مضي نصف سنوات —
ازدادت حالة البلاد الداخلية والخارجية تخرجاً ولم يعد لها من
ذلك المأزق مخرج.

واستفحل الشر فلم يزع الخسر عام ١٠٦٨ حتى طعن ناصر
الدولة ولم يعد يرع للمستنصر بالله زمائماً ولا حرمة فاصحى الخليفة
أسيراً في قصره لمن كان بالأمس قائده

وقد حصص المستشرق المعروف هاتين كازمير، الذي
استقى بياناته من المراجع القديمة لذلك العصر بحثاً وافية لتاريخ
هذا الملك التعس ووصف حياته وصفاً مؤثراً. فقد أصبحت حياة
الخليفة حلاً مزعجاً بين جدران قصر يحاصره جنود الاتراك
المرتزقة الذين كانوا يطالبون يوماً فيوماً بزيادة أجورهم ويدعون
في طلبهم.

وقد هب ناصر الدولة وحنوده المحيرون المرتزقة المصالح
العامة واطلعوا يد السلب في إيرادات المؤسسات الخيرية وسطروا
على خزينة الدولة وقصور الخلفاء وعلى كل ما كان في متناول
أيديهم.

وسرعان ما نفدت موارد الدولة ، ولما لم يجد الخليفة من
نفسه الحزم الكافي لوضع حد لشرور هؤلاء الجود ولا الوسائل
لإرضاء مطالبهم الملحة ، توترت الحال بينه وبينهم الى حد أكرهه
معه على بيع التحف الثمينة التي جمعت في قصره منذ عدة أجيال
وجاها من ذكريات عالية لأسرته وأواني ذهبية وفضية وكذلك
حواهر التاج الخاصة وجواهر أسلافه من الخلفاء السابقين . وإنا
نجد في المراجع العربية القديمة وصفا تفصيليا لتلك الثروات الطائلة
التي كانت تضمها قصور الخلفاء في الصف الأول من القصر
الحادي عشر .

وقد بيعت فعلا كوز الملوك الفاطميين وأورد لنا المؤرخ
العربي المقرئ في هذا الصدد رواية رائعة حيث يقول :
استدعى الى القصر بعض بحار الحواهر من مدينة المسطاط
وعرض عليهم في بادي الأمر صندوق يحوي سبعة أمداد من
الزمرد لا يقل ثمنها عن ٣٠٠ ألف دينار . فقال الجوهريون ان
هذه الاحجار الكريمة لا تقدر ثمن . فطلب الضابط الاتراك
في الحال ان يرصد هذا الكنز عليهم بحجة ما تتطلبه نفقات
الجيش من المصاريف الطائلة .

وعرض على الجوهريين بعد ذلك عقد من اللؤلؤ تقدر قيمته

بثمانين ألف دينار ، فطلب هؤلاء النصوص ان يرصد عليهم أيضا
وبينما كانوا منهمكين في التأمل الى ما حواه انقطع خيط العقد
وتناثرت حباته فأخذ أحد الضباط الأتراك حبة واحدة منها
وأحفاها في جيبه وتمثل به الفواد العظيم الآخرون ثم التقط
باقي الضباط ما بقى من حبات النؤلؤ فلم تنص فبرة حتى كانت
آثار العقد كله قد اختفت .

واستولى الضباط كذلك على ما كان لصليحي أمير مكة
قد بعث به الى الخليفة من الدر السمين الرائع الذي بلغت رفته
سبع وفيات ، واستولوا على الفين ومائتي حاتم بحلاء مخصوص من
الاحجار الكريمة بينها ثلاثة لأحداد المستنصر بالله بيعت بعد
ذلك العهد باثني عشر ألف دينار .

وحى بمقاص فيه نحو وية من الجواهر ، ولما طلب الى
الجوهرين ان يقدروا قيمتها أجابوا بأنها فوق كل تقدير لا
يفتني مثلها غير الملوك . اذذاك دخل جوهر المعروف بالمختار
وكيل بيت المال وأسر الى الخليفة ان تلك اجواهر قد
كلمت جده ٦٠٠ ألف دينار فلم يكر من الخليفة إلا ان
أمر بتوزيعها على الأتراك .

ثم استورد المقرئ فقل : وحدثني من أتق به من المستخدمين

في بيت المال انه استخرج من حرائر القصر صمن ما استخرج
مها عدة صديق كان احدها بحوى مقداراً كبيراً من الاواني
المصنوعة من اللور الصافي.

وقد تولى ابو سعيد النهاوندى في مدة وحيزة بيع ١٨ ألف
آية من اللور منها ما يساوى الالف دينار.

واحرحت من حرائر القصر اطاق من الذهب منها ما هو
مطعم بالميا ومرصع بالاحجار الكريمة ومنقوش بسائر انواع
الفوش. وقد بيعت كذلك تسعة آلاف على مختلف الاشكال
مصنوعة من الاخشاب الثمينة المحلاة بالذهب. ووجد أكثر من
مائة كأس بزهرير نقش على معظمها اسم هارون الرشيد
الخليفة العباسي، وبعض الصديق الملية بالدوى المختلفة الاشكال
المصنوعة من الذهب والفضة وحشب الصندل والعود والابوس
الوارد من بلاد الریح وهي تبار بدقة صنعها وسلامة ذوقها
وقد شوهدت في القصر أيضاً أباريق من الصینی مليئة بالكافور
القيصري واقداح مصنوعة من العنبر الشجرى وقوارير مسك
من بلاد التبت

وقد بيعت طسوت كبيرة من الفضة يقدر الواحد منها
بالف دينار وهي من الطسوت المحصنة لعسل الملابس، ووجدت

لوران محطية الخليفة المأمون حصيرة من الذهب الدقيق الصنع .
واخرجت من خزائن القصر أيضا ثمانية وعشرون طفاً من
الميا والذهب كان ملك الروم قد أهداها الى الخليفة عبد العزيز
يهدر ثمن الواحد منها ثلاثة آلاف دينار وقد اعطيت كلها لناصر
الدولة قائد رحل الميليشيا الأتراك ، وبالاضطاط الأتراك
الآخرون مراى حديدية كثيرة لها مقبض من العقيق ومحلاة
بالذهب المطعم بالفضة ومكحلة بالأحجار الكريمة ومحفوظة في
علب ذات أفعال ذهبية ، وكانت هناك مطاللات لها مقاض من
العصاة والذهب واحرج من خزائن القصر أيضا ما يفارب
الآلاف من الآلات المصنوعة من العصاة المحلاة بالذهب فيها ما رنة
القطعة الواحدة منها خمسة آلاف درهم ، وكان هناك مقدار
كبير من رقع الشطرنج والبرد المصنوعة من الذهب وأحجارها
من الأبنوس والعاج والذهب والفضة .

وكانت خزائن القصر تحوى أربعة آلاف قمص من الأقمص
الكبيرة المحلاة بالذهب وستة آلاف زهرية من الذهب لحفظ
زهور البرحس والسمسج وهى الزهور المفصلة لى المستنصر بالله
وستة وثلاثين قطعة من السلور واثنين وعشرين قطعة من العنبر
وعدها لا يحصى من السكاكين وقد بيعت كلها بسبعة وثلاثين

ألف دينار .

وكان من أعرب ما في القصر وأهله عمامة مرصعة
بالجواهر تقدر بمائة وثلاثين ألف دينار ، وكان من بين الأحجار
التي عليها ياقوتة وزن ٢٣ مثقالا ومائة لؤلؤة وزن الواحدة منها
ثلاثة مثاقيل . (ويحتمل أن تكون هذه عمامة الخليفة الشيرة)
وكان هناك طاووس من الذهب مرصع بالجواهر الفيسة عباه من
ياقوت أحمر وريشه من الزجاج الملبأ ، وديك من الذهب
المرصع باللآلئ له عرف كبير من الياقوت : وغزال مرصع
نهبس الدر والجواهر نظم بطنه من الدر الرائع ، وبطيخة من
العنبر في صندوق من الذهب المرصع بوزن ثلاثة آلاف مثقال
ومائدة نصب كبيرة ذات قوائم مخروطة يستطيع عدة أشخاص
أن يتناولوا الطعام عليها ، ومحلة من الذهب لا تقدر بشئ .
وقد كللت الحواهر واللآلئ التي تمثل البلع في جميع أطوار
بصوجه ، وطست من البللور والذهب المنقوش يساوي ثلاثة
آلاف دينار .

وقد أتى المقرئ على ذكر الكوز الرائعة التي وزعت أو
بيعت للآتراك المرتزقين في عشرات الصحن ، ومن أعرب
المفاس التي حوتها خزائن هذا القصر والتي لم يحصل على مثلها

أى ملك آخر فى التاريخ مهما شدت طاعه سواء أكان قبيل أو
هليو جابال أو كاليبجولا أو نيرون أو كليوباتره ، مع استثناء
عظماء الهد من المغول وبالأخص ملوك جولكوند الخرافيين —
زوارق الزهرة وهى روارق من الفضة فريدة فى نوعها فى
التاريخ وصفها المقرئى فقال :

شاهد فى حرائر القصر زورق بعلمه وطافسه صنع فى
سنة ٤٣٦ هجرية وقد استعمل فى صعه ما يقرب من ١٧٠ ألف
درهم من الفضة ، وصرف للصناع عن أجرة صاعته وثمان
طلاته بالذهب حمه آلاف دينار . وكان هناك زورق آخر
لا يقل حمالا عن الأول صنع خصيصاً لأم الخليفة المستنصر
وكان بمجموع الروارق الموحودة ٣٦ رورقا صنعت كلها
من الفضة وفرشت بأثمن الريش والضفافس ، وهى الزوارق
التي كان الخليفة ورجال حاشيته يستخدمونها للبرهة فى الليل
وقد كلف صنعها ٥٠ ألف دينار .

وكان هناك أيضا بستان أرضه من الفضة المشغولة المطعمة
بالذهب وطيبته من الدواب وأشجاره من الفضة الموشحة بالذهب
وأثماره من العنبر وغيره من العناصر الثمينة ، وكان هذا البستان
الفريد الثمين قائم فى فسحة بالقرب من جناح الملك الخاص فى القصر

وقد فتحت لتلك الضغمة من الحدود حرائن أخرى من خزائن
قصر الخلفاء وكانت تحوى ألهى طنفسة من دمشق واصفهان
وأقمشة مطرزة بالذهب لم تمد إليها بد . وأخرج من خزانة واحدة
ثلاثة آلاف قطعة من الفماش الدمشقى الأحمر المطرز
بالأبيض وعدد لا يحصى من الطافس والحرير والمحمل من
مختلف الألوان بما لا يقدر بشئ ومقادير عظيمة من الحصر
المطرزة بالذهب والفضة وقد رسمت عليها صور جميع الطيور
والحيوانات . وقد أخرج من الخرائن كذلك ما يقارب
الآلاف من هذه الطافس كتب عليها تاريخ مختلف الأسر .
وقد آلت الى ضابط اسمه نخر العرب قطعة من الحرير
الاررق التستري المنسوح بالذهب وسائر ألوان الحرير كان
الخليفة المعز لدين الله قد أمر بصنعها سنة ٣٥٣ هـ وهى تمثل جميع
بلدان الارض كالخريطة الجغرافية وقد ظهرت فيها بجلاء
ووصوح مكة والمدينة وكتب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر
وبحر وطريق اسمه بالذهب والحرير المطرز وكلف صنع هذه
القطعة النفيسة ٢٢ ألف دينار .

ان وصف هذه القطعة الرائعة يؤيد لنا ما كان عليه
الصانع العربى من براعة الفن وخصب الخيلة .

ان تعداد المقادير العكسيرة من حيم الحرب والمسرات
وتوابعها قد يطيل بنا الحديث لذلك لن أشير الا الى حيمتين
عجيبتين .

قال المقرئى ان تاج الملوك أحد الصايط الاتراك أحد فيما
أحده من الفرائس خيمة من الحرير الأحمر المنسوج بالذهب أمر
بصنعها الخليفة المتوكل بدين الله

وكانت احدى هذه الخيم المعروفة ، بالمسورة العكسيرة ،
تقوم على عمود واحد طوله ٦٤ ذراعا وهى مؤلفة من ٦٤ قطعة
يجمع بعضها الى بعض نرى وشراريت من الفضة . وكان لابد
من مائة جمل لكل مختلف اجزاء تلك الخيمة ومعداتها ، وقد
رسمت على جوانبها الداخلية صور رائعة للحيوانات وفى أعلاها
قبة للتهوية يبلغ ارتفاعها ثلاثين ذراعا ، وكان الخليفة المستنصر
قد طلب الى ملك الروم عمودين لسدها طول كل عمود منهما
ثلاثون ذراعا ، وكان عدد الخدم المكلفين باقامة هذه الخيمة
واعدادها مائتى رجل .

وكانت حرائر الاسلحة تحوى عددا لا يحصى من الخوذ
والدرع والسروج المحلاة بالذهب والمرصعة بالاحجار الكريمة
والسيوف الفولاذية والصاديق المليئة بالاقواس وحجاب السهام

والرماح والشاب والمزاريق .

وقد ذكر لنا المقريري والمؤرخ ابن عبد العزيز ابن
الحزائن كانت تحوى مائة ألف قطعة من السلاح علاوة على
الدروع المحلاة بالذهب وعددها ١٩ ألف درع ، والاعلام
وسواربها الذهبية والفضية وملابس الاستعراض والتشريفات
التي كان يرتديها ضابط القصر الملكي وهي تعد بالآلاف .

وقد اقتسم الضباط الأتراك العشرة الشائرون على المستنصر
معظم هذه الأشياء وكذلك آثاراً تذكارية عسكرية ثمينة
تخلقت عن الاسلام مثل :

• سيف الحسين بن علي بن أبي طالب (حفيد النبي صلعم)
وترس حمزه بن عبد المطلب (عم النبي صلعم) وسيف عمرو
بن العاص فاتح مصر وترس جعفر العادل وسيفه .

• سيف وعلم عيد الله مؤسس الاسرة الفاطمية في القيروان ،
وقد ذكر ابن عبد العزيز الذي نقل عنه المقريري ابن
عدد الأشياء الثمينة التي أحصيت امامه في هذه المناسبة لتوزيعها على
العواد الأتراك الثرئين كان يربو على المائة ألف

• وأخيراً ، المفروشات والتحف الأخرى التي بيعت بالمزاد
في الخمسة عشر يوماً الأولى من شهر صفر سنة ٤٦٠ هـ وهي تحف

وان تمكن قدرت بأبحس الأثمان فقد بلغ ثمنها ٣٠ مليون دية ر
وذلك فضلا عن التحف التي سلبت أو أخفيت .

ولا شك ان من أهم الحسائر التي سلبها الخليفة لصغير الوليد
المستصر بالله وارث هؤلاء الامراء الفاطميين الذين تدين لهم مصر
بنمطها الثقافية كان اقراص مكتبة الفاطميين العظيمة الرائعة
وانى سأحدثكم يوما ما عن مكتبة الفاطميين المدهشة في
القاهرة كما سأحدثكم عن مختلف مكاتب وامراء الاسر والدول
الآخري من العرب .

ثق يا صديقي الشاب ان امراء الشرق والعرب لم يمتلكوا
في أى عهد من تاريخ العالم مكاتب كانت تضم بين جدرانها مئات
الآلاف من المخطوطات كالتى كانت تضمها مكاتب ملوك العرب
وحتى اذا استشيئا — اللاعويين وبعض قياصرة الرومان مثل
طبريوس اورليانوس وماركوس أورلوس وسطيوس
سميروس وملوك بزنطه مثل حوستيناوس الأول وميخائيل
الثانى أو الكسيس كومنين وجميعهم اشخاص افاضوا جمعوا
ما جمعوه بطريق الهوى والعلم — لم يكن من ملوك أوروبا
وامرائها الا من آل فالوا أو نودور أو ستوارت أو بوربون
أو هابسبورج أو مندسيس أو فارنيز أو بورجيا من يملك مثل هذه

الثروة العظيمة من المؤلفات من جميع الفنون واللغات .
ومما يعطينا فكرة ولو غامضة عن ضخامة تلك الثروة
الادبية ان الخلفاء الأمويين ثم العباسيين في بغداد كانوا يملكون
مكتبة خاصة مؤلفة من ٥٠٠ ألف مجلد منها الكالدي والمينيقي
والعبري واليوناني واللاتيني والفارسي والعربي .

فدبية بغداد وحدها كانت تحوي ٢٣ مكتبة عمومية فضلا عن
مكاتب الهيئات المختلفة والمعاهد الدراسية الخ .
وكانت مكتبة بلاط الحكم في قرطبة تضم ٦٠٠ ألف
مجلد منها ٤٤ مجلداً للفهرست .

وقد ذكر المؤرخ « دالور » في مؤلفه الذي وضعه عن
« تاريخ باريس » ان المكتبة الملكية وهي أول مكتبة أسست
في فرنسا أصبحت تحوي بعد جميع الجهود التي بذلها الملك « شارل
الحكيم » (وذلك نحو ٤٠٠ سنة بعد حطها قرطبة) ما يقرب من
تسعمائة مجلد ثلثها من كتب اللاهوت .

وكانت اسبابيا الاسلامية وحدها تضم ٧٠ مكتبة عمومية
وان اكيمينيس وتور كويمادا لمثولان عن فقد هذه المكاتب
الرائعة التي أمرنا بأن يلقى ما فيها طعاما لليران .

وكانت مدينة حلب تحت حكم الفارس سيف الدولة ابو الحسن

بن حمدان أمير حلب تحوى ١٤ مكتبة عمومية وكانت مكتبة
الأمير تضم ١٦٠ ألف مجلد اتلفت كلها في أواخر القرن
الثاني عشر إبان غزو المغول

ولنرجع الآن الى الخليفة الناصر المستنصر بالله الذى يعد
تاريخ حياته سلسلة نهب وسلب فقد أضاع عليه جشع جوده جزءاً
كبيراً من كنوزه الطائلة ومكتنته التى لا تقدر شمس ولكن نتائج
بلادته كانت أشد وبالاً عليه فأدت الى اهتبار أسرة العاطميين
وقد حررتة المؤامرة التى أودت بحياة ناصر الدولة من ضابط
وقح ولكها لم تصلح الحالة ، فقد عين المستنصر حلفاء لناصر
الدولة شخصاً لا يقل خطورة عنه وهو رجل تركى يدعى «الديجيز»
وقد تمادي هذا الأخير فى سطوته الى حد الغشاء ذكر اسم
الخليفة من الصلوات العمومية واستبداله باسم حليفة بغداد القائم
وأخيراً انتهى المستنصر بأدراك الخطر المحرق به فمقص عنه
عمار الخول وتسلح بالحزم والشباط ، واستدعى لإعادة من
حراسة الانراك بدر الجمالى الارمنى الذى قدم مصر عام ٤٦٦ هـ
(١٠٧٢ م) تصححه حدوده المرتزقة من التتر والارمن .

ولم يتردد بدر الجمالى عند تقلده القيادة العليا للقوات العسكرية
بلقب « أمير الجيوش » فى اعدام الأمراء الانراك فى القاهرة

جماعات جماعات لا يهاذ مولاه الذي أخلص له كل الإخلاص ولم
يخطئ في حقه مرة واحدة. وهكذا عادت الطمأنينة أو ما يشبهها
إلى البلاد على أثر تلك الديكتاتورية الدامية واستطاع المستنصر
بفصل التداير الحازمة التي اتخذها حاديه المخلص أن يحكم من وراء
ستار غير مكثرت إلا بلداته وحدثاته وناته النادر وطوره
الغريبة وأفرامه ومصحبه في البلاط، وقد مكث في الحكم أكثر
من أسلافه إذ قضى ٦١ عاماً انتهت في إحدى ليالى ربيع
سنة ٤٨٧ هجرية (١٠٩٤ م) فيكون بذلك قد ضرب الرقم
القياسي في طول مدة الحكم. وبهوتته أول نجم الفاطميين هائلاً
في أفق الشرق

وقد حلفه على العرش بجله الثاني، المستعلي، من سنة ٤٨٧ هـ
(١٠٩٤ م) إلى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ويمكن أن يقل
عن حكمه أنه أشبه بالاحلام أو حكم الأشباح

وحلف هذا الأخير بجله، الأمير، سنة ١١٠١ م وهو في
الخامسة من عمره. فكان سلوكه المشين فيما بعد وتعدد
جرائمه سبباً في كراهية الناس له فاغتيل سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م)
وحلفه على العرش الخليفة الحافظ ابن عمه وبذلك انتقل
العرش إلى أسرة الفاطميين التي تليها بساً، ومرت مدة حكم

الحافظ — وهي عشرون عاما — وسط تقلبات دامية وحوادث
مرعبة .

وفقد الفاطميون بضياح قبروان آخر ممتلكاتهم في أفريقيا
العربية كما أنهم فقدوا في سوريا امارة قيصريه وحصر عسقلان .
وبعد وفاة الحافظ عام ٥٤٤هـ (١١٤٩ م) تقلب على العرش
ثلاثة أمراء شائنين وهم خلفاء لا يستحقون الذكر فقد كانوا
كالأشباح يافعون غير نافعين معدين في عقر قصورهم ومحكومين
من وزراتهم وجودهم الكثرين ، لقد ولدوا ليكوبوا طعمة
الموت وهم في فجر حياتهم فلم يتمتعوا من العرش إلا بظله ومن
الملك إلا بصولجته وتاحه ان ان دوت ساعاتهم وبال منهم الحمر
أو السم فأفقد حياتهم مما كان يرقها من عذاب أليم وحكم
رهيب كان فائمة لمأسة الحروب الصليبية الأولى

ان يبقى من هؤلاء الفاطميين الا بيين غير ذكرى مجدهم
التلذذ ، ولان يبقى من دكرات عصرهم غير هذه الخوامع
الاثرية التي لا تزال قائمة في مصر القديمة وما تحمله الى القوس
من رهة وروعة ، ولان يبقى من أنيتهم الشاحه الخيلة غير
تلك الاسوار المحفورة وأحجارها المتداعية ، وغير تلك الأبواب
المعقدة وتلك الواقد الدبعة ، وغير تلك الآثار العربية الدقيقة

الجميلة وتلك الحلى المصنوعة من البرونز وأواني الفخار الرقيق
والرخام المنحوت المحرم والمصاييح المطمأة ، ولن يبقى من فوسهم
غير رهبة تلك العقود المصنوعة من الأخشاب الثمينة أو المطعمة
بالصدف والعنبر والعقيق والعاج الدقيقة الصنع الموعة الاساليب
تتحللها بحكمة الصندل والعسود التي توضع من تلك الأخشاب
حلف جدران تلك الجوامع القديمة الصامته لقد مرت دولة
الفاطميين

وتلتها دولة أخرى دولة جنود محاربين : هي دولة الأيوبيين .
ليس هناك شك في أن ظل ذلك العصر المتداعي ، ذلك
العصر الذي آل فيه الاسلام إلى الانهيار بين برائن الصايدين لاند
أن يطعمي على روعة أمراء العرب في الشرق الادنى .
وكان لابد أن تنشق من ذلك الطل شعلة من النار ويتألق وجه
حديد يستضيء به الشرق وذلك الوجه الجديد تعرفونه كلكم فهو
وجه الفارس المسلم صلاح الدين الأيوبي ذلك البطل الذي كان قلبه
وروجه يشتعلان بنيران الحروب فكان لا يعرف الهزيمة ولا يقبلها
وقوف في وجه أوروبا المتحالفة ، أوروبا نصف الهمجية ليقول
لأمراءها المحترمين الدين وقفوا أمامه صاغرين معجبين :
وقفوا .. لن تمروا

المدينتان تاريخي الرابع

غزاة العرب وفتوحاتهم

خالد بن الوليد — معاوية وأخلاقه —
توطيد دعائم الامبراطورية — المملكة
الاولى — البحرية الحربية الاولى —
الأمويون — الجامعة الاسلامية في
الصين والهند في القرن الثامن — الرحالة
العرب في المحيط الهادي — فتح اسبانيا —
طارق بن زياد — معاركه — كسيريس،
ووادى الحكة... بلاط الشهداء.

إننا لنسائل أنفسنا عما كان سيحل بالاسلام أمام القوصى
المروعة والثورات المتوالية والاحتكاك الذي كان يسود
مصر في أواخر عهد الفاطميين حيث اعتصب طعمه من الخو
المرتقة زمام الحكم دون أن يكون هناك - حتى محي - الايوبيين -
رحل واحد يجد من نفسه العزيمة الكافية ورطة الجأش يسرع

من برائتهم وينقذه من أيديهم .

ما ذا سيحل بالاسلام أمام عوامل الشقاق الى كانت تمزق القوات العسكرية التابعة لأمراء المسلمين الآخرين بالشرق في أواخر القرن الحادى عشر . ففى سوريا وفلسطين والعراق كان الأمراء بين كل حملة من حملاتهم ضد البيزنطيين يعاودون مآرعاتهم العشائية أو الشخصيه . فيكون بذلك قوامهم وعملهم على فك عرى التضامن الذى كان من شأنه أن يحميهم ويقدمهم من كل خطر قد يستهدفون له جميعاً ؟

ما ذا سيحل بدولة العرب أو حضارتهم أمام العرب المذعور الذى بدأت يراى العيرة تلهم قلبه من ثقافتهم وشدة بأسهم ذلك العرب الذى حن جسده من وجود العرب بين طهرانيه والذى لم يلبث ان ثارت ثأرته عليهم وردهم على أعقابهم من حيث أتوا ؟

ما ذا سيحل بالاسلام بأثرى ؟ ...

فللق نظرة عاجلة إلى العالم فى القرن السابع حيث كانت الممالك والدول تنهار الواحدة تلو الأخرى .

لقد كانت الامبراطورية الرومانية ، التى كانت قبائل البربر تتحفز للانقضاض عليها عرصه لعوامل الانحلال الى

أخذت تنحر في أسسها فعملت في انهيارها وفنائها .

وكانت امراطورية . الفريج . في العرب منهمكة في
ترقب حركة التنازع التي نشأت بين . يوسربا . و . أوستراليا . .
أما الامراطورية اليونانية في الشرق فكانت عاجزة عن
وضع حد لمازعاتها الدينية . وكان هرقل يحاول عشاत्मك
باهذاب مجد بدأ يفلت منه ويهجره .

وأمام أعين هذه الممالك فاطمة برعت شمس امراطورية قبية
من جوف صحراء جزيرة العرب المنقورة الجرداء .

كانت جزيرة العرب في القرن السادس ملحة جميع الاديان
ومهداً لمبادئ التعصب والضلال إلى أن هدت واقذت
وبعثت بفضل جهود رجل واحد هو النبي (صلى الله عليه وسلم) .
انبعث الاسلام من صدر جزيرة العرب نفسها دون أن
يوجه اليه العالم بادي . ذي بدء . أي اهتمام فلم يكن هذا الدين الجديد
يعتبر عندئذ تهديداً مباشراً أو خطراً داهماً على المسيحية إلى ما بعد
وفاة النبي (صلعم) سنة ٦٣٣ م اذ ذاك هبت جحافل من العرب
الأشداء لا غاية لها إلا الفتح ونشر الاسلام ووقعت كتلة واحدة
في وجه آسب العامصة المستهترة وافرقيبا الخملة واوروبا المبحنة
سيروا معي في إثر هذه الجحافل الجديدة . . . وفي عهد ابي بكر

الصديق الخليفة الأول دق ناقوس الفتح فسمعت رناته في بغداد
واليمن والعراق ثم رددت صدها بلاد عمان والحرب وحضر موت
كان لاني بكر قائدان محكان هما : اسامة بن زيد وحالد
بن الوليد فيط بحلد ، الوليد مهمة قمع الثورة في جزيرة
العرب واحضاعها ، فأحدها وسار إلى العراق وهرم الفرس
وانزع منهم الحيرة والأسار ثم توجه إلى الشام حيث كان
الامبراطور هرقل يحشد جيشا عرمرعا ليقاوم به جيش العرب
ووفعت الملحمة بين الحشيين بحوار الصرّة فهزم خالد بحكتته
القائقة جيش هرقل وسحقهم ثم مشى نحو دمشق . فكان ذلك
أول انذار لبرصة ونسيجة .

وفي خلافة عمر بن الخطاب عزل خالد من منصب القيادة
العامّة لما أظهره من صروب الفسوة والانتصار المتواصل ، على
أنه استمر في خدمة الحش تحت إمرة أنى عبيدة وكان هو الذي
عاد فهرم الخيوش البيزنطية على أثر عودتها بالقرب من هراقلية
إذ ذاك استولى العرب على حمص وحماه وطرسوس وعلبك
وفيصرية وحلب واطاكية وهيربوليس وعكا وبيروت وصيدا
ودانت لهم الشام بأسرها على أثر استيلائهم على مدينة اللاذقية آخر
معقل حصين للروم في تلك البلاد .

وفي غضون ذلك حاصر عمرو بن العاص مدينة القدس
واحتلها ثم لم يلبث أن انتزع مصر من قبضة النسطورية .
وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان ، عهد المضامع العظام ، سيطر
العرب على بلاد أرمينيا .

لقد كان معاوية أيام خلافة عمر حاكما على الشام وقد أدرك
عدائنه من السهل نشر لواء فتوحاته بالشب ، اسطول بمدد مدن
الشام الساحلية بكل ما هو في حاجة إليه من الرجال والعنادر
ولكن الخليفة عمر أي أن يشاركه هذا الرأي .

وفي خلافة عثمان القصيرة الامد جهز معاوية اسطولا
أحاطه بوحدات من السفن المصرية وغزاه جزيرة قبرص ثم
جزيرة رودس وحرب سلاميس التي كانت تسمى فسسطيا
في ذاك العهد .

وفي عصور ذلك كان عدائهم من الرير قد أحصم
طرابلس وأباد في موقعة جاكوسا حيوشا أخرى من حيوش
بنظرة التي كانت يقودها إيروريوس القديس وهو من أعظم
قواد الروم وأقدرهم .

وفي خرسان زحف العرب بقيادة عبد الله بن أمير حتى
نهر الاوكسوس .

وكانت تخرج من الشام كل سنة حملات من الجند تجوب
أنحاء آسيا الصغرى مهددة كيانات بيزنطة . واستمرت هذه
الحملات إلى اليوم الذي استصوب فيه الامبراطور قسطنطين الثاني
أن يعقد هدنة مع معاوية الجزار لمدة ثلاث سنوات في نظير
جزية يدفعها له .

وفي خلال هذه الهدنة مع بيزنطة احتار سليمان بن ربيعة عمر
درند حيث تنحدر حال القوقاز حتى بحر قزوين وأراد احصاع
الخزريين . فكان ذلك أول احتكاك بين العرب وبين تلك
القبائل المستوحشة من عمالة القوقاز الذين لم تنفع القوة في
احصاعهم ولم يخلصوا لها ابدا . وقد هزم سليمان بن ربيعة وأيد
جيشه عن بكرة أبيه سنة ٦٥١ م .

ولكن حيث لم يبحج السيف في نشر عقيدة وسلطان
محمولين — يحج لتعلل بحار العرب السلمى في تلك البلاد
وتشيرهم بالاسلام بعارات مصعة هادئة في نشر العقائد الاسلامية
في كثير من قبائل القوقاز برمتها . فانصمت تلك القبائل فيما
بعد الى جيوش المسلمين وجحافلهم .

ولما انتهى أهل الهدنة بعد انقضاء ثلاث سنوات قام معاوية
بحملة بحرية لفتح القسطنطينية . فأفزع اسطول له بقيادة أبي الاعور

وسار حتى كاليدونيا ودمرها على أنه لم تلت أن هت عاصمة
هوجاء حطمت الاسطول عن آخره .

لم تمت هذه الهزيمة في عضد معاوية ولم تدحل اليأس في
قلبه . فقد عقد النية على تحطيم الامبراطورية البيزنطية . وانه لفاعل
فقد استولت جيوشه على مدينة سيزيك وسارت حتى اسوار
القسطنطينية محاصرتها ستة أعوام غير ما حدوى . وهالك تحت
تلك الاسوار قصى أيوب الأنصاري آحر رفيق من الصحابة
الذين عاصروا النبي (صلعم) .

وفي غضون ذلك وم اس الحجاج حملة بحرية على جزيرة
صقلية فاحصعها واكسح سواحل ايطاليا ، في نفس الوقت
الدى قام به عقبة ن نافع بفتح افريقيا الشمالية حيث شاد مدينة
القيروان عام ٦٧٥ م . وإبان ذلك سار جيش عرنى بقيادة رباد
واجتار نهر الاوكسوس من جديد وتغلب على قبائل البركان في
ترنسوكسانيا ونشر فيها تعاليم الاسلام .

لقد جمع العرب معظم فتوحاتهم وأجملها في عهد خلافة معاوية
بن ابي سفيان وبفضل ارشاداته الحكيمة .

وانتم معاوية تأسيس الجامعة الاسلامية التي طالما وكر فيها
أسلافه وأمدتها بنظام داخلي وخارجي من أدق الأصمعة الى

عرفت في ذلك الوقت وأشاد أركان الامبراطورية وركز
اطرافها بأشياء نظام البريد فضمن بذلك سرعة المواصلات بين
مختلف اقاليم الامبراطورية . والله أعلم بمدى اتساع تلك
الامبراطورية !.. فقد كانت تمتد من المحيط الاطلنطي حتى
الاوكلوس .

وانه الخلق ما أنفقوا نأول بأن مكاتب البريد تلك كانت
نماذج قامت على أوصاعها ودرارات المواصلات الحديثة .^(١)
أسس معاوية فضلا عن ذلك دواوين ابيه ، أو دواوين
الحكم . احتضنه مرافقة مصاريب الحرب . وبنى كانت هناك
مصالح مشابهة من عهد الخلفاء السابقين (عمر وعثمان) فان معاوية
قد حولها وجعل منها ودرارات حقيقية نظم ثالثة وقواعد
للاشراف والمرافقة

وهو لدى ذلك ايضا أولى دواوين الحرب ، وعهد اليها
باحتيار الرجال لصالحين حمل السلاح ووزهم وتعادل هذه
الدواوين تقريرا مكاتب القرعة في عهد .

١ - بعد مكاتب البريد في عهد الخلفاء السابقين . كما في عهد عمر وعثمان
حتى عهد معاوية . فمما كان من شأنه أن يوسع من دواوينه . وهو يصف
بأنه قد جعل من دواوينه ودرارات المواصلات الحديثة .
وظهرت في عهد معاوية . حول دواوينه من مكاتب البريد
وشملت دواوينه . ومنه ما كان من شأنه أن يوسع من دواوينه .

على أن أعرب منشأته كلها كانت الاساطير البحرية
الاسلامية الاولى .

وانه لو صي مدهش عجيب ذلك الذي دفع بهذا العرف الذي
نشأ في حوف الصحراء بعيداً عن لجح الحار الى اكتشاف
ما للبحر من صولة ودولة فأدار له وجهه وسدد بال شعله نحو
ذلك الافق البعيد حيث توحد أحمل الفتحاحب وأسماءه .

ولم يكتف معاوية بذلك بل طلب المزيد من المسريد
كان يفكر ويرمى الى تمديد فكرته ... ويرغب في شيء كان
لا بد له من الوصول اليه . كان يعلم في اشياء دولة مطلقه وبممكنه
شاسعه . فهل انت أن تسمي في تحليل الدقيق لتلك الشخصية
المردوجة التي اصفى عليها التريبع ظلام من سوء الظن بها قد يكون
بعيدا عن الحق ، والتي وصمه بها لقدر بوصمة المكسرة المحولة
وانه ليحس بنا أن نزع ، قدر المستطاع ، ستار المزاعم الساطلة
لينسى لنا رؤية الاحداث والشخصيات التاريخية في شرقا كما
كانت عليه مجردة عن الاساطير التي احبطت بها ، وعن ستار
الايهام المفرضة الذي نسخته حولها دعاية كاذبة في غالب الاحيان
اني لا أعرف . أه اني لست بمؤرخة أو عالمه بسيكولوجية
بل راوية بسيطة بمجولة ، إذا كان معاوية اتصف برفع الخلال

وبكى على علم حد العلم أنه كان ذا شخصية فذة .. فلقب
ولم ينف أثر معاوية عام ٦٥٦ م قبل الحوادث الجسام الحاسمة
التي وقعت إبان ذلك الوقت .

ففي عام ٦٥٦ كانت المؤامرات في المدينة تحك في حكام
الخليفة امتداعية . وكان الخليفة عثمان صعيص الارادة مترددا
فاستدعى لخدمته فائديه عبد الله بن أمير والى البصرة ومعاوية
والى الشام وكلاهما أموى ومن نخته الأقربين .

على أن معاوية وحدوده وصلوا متأخرين فوجدوا
الخليفة قتيلا ووجدوا القوصى تمزق احتساء جريرة العرب من
أدبها الى أفصاها . وما ردى معاوية طرد الثأر لاغتيال عثمان انهم
بحت لوائه الأمويون وأصارعهم قاطنة وكانوا عديدين . أما
أصارع على روح كثرته الى (صلعم) الذين كانوا يطالبون
بالخلافة رعيهم منذ مد طويل فقد تحدوه ووفعوا في وجهه . ولم
يكن أصارع على ولا أصارع معاوية مسئولين عن اغتيال الخليفة
ومع ذلك نشأ القتال بين الفريقين شديدا عينا لا رحمة فيه ولا
هوادة وكلا الفريقين يسعى الى تقلد زمام الخلافة .

وبعد معارك دامية أعورنها النتائج الحاسمة لجأ الفريقان
إلى التحكيم لتقرير المصير بين على ومعاوية والمادة بأحدهما خليفة

على المسلمين . فعند عمرو بن العاص وفتح مصر السابق
مكيدة لا تشرفه ليست عباً حقه في الخلافة . فأتى على الخضر
والاستسلام فديرت مؤامرة أخرى لوضع السلاح والكف
عن القتل وقرقرار المتأمرين على حل المشكل باعتيال على
ومعاوية وعمرو بن العاص على أن يقتل ثلاثتهم في يوم واحد
ولكن حاصر المتأمرين لم تل الامس على وحده .

وعقب تلك الاحداث الدامية بايع الشيعة في فارس
بجل على الاكر بالخلافة على الرغم منه . أما معاوية الذي كانت
تدين له الشام ومصر وحريرة العرب ومدينتا مكة والمدينة
المقدستان فقد اعترف له انتصاره بحق الخلافة . وهكذا
استؤنفت الحرب فانقسم المسلمون على بعضهم . على أن انتصار على
لم يلبثوا ان هزموا ولم ير بحله بدا من التنازل عن حقوقه في الخلافة
فاصبح معاوية السيد المطلق والامر امطاع .

وهكذا حلف معاوية الخلفاء الراشدين الاربعة في حقته من
أشد حفقات التاريخ حرجاً وفي أيام اندلعت فيها ييران الحروب
الاهلية وفاضت دماء المجازر بين الاشقة المفرين من العرب . وهي
لعمرى حوادث لا شك في أن نعة بعضها تقع على عاتق معاوية
وان كان بريثا من نهمة الاشتراك في اغتيال على الخليفة التقى الورع

سواء أ كان ذلك بطريق مباشر أم غير مباشر .

وعلى الرغم من الظروف التي افترت توليه الخلافة فإن شخصيته لفتت وتسمو على مستوى معاصريه وعهده مما اتصف به من قوة الحق والدكا. الخارق والتمسك بأهداب الرقي والسعي الحثيث وراءه .

إنه ليدول ككتمم للأعمال الحسنة التي لم يتسع الوقت أمام أسلافه لعضام لأجارها وهي الأعمال التي سعى إلى توجيها توجيها حديدا عسى أن يستجدها في تحقيق أعراضه الخاصة .

في سنة ٦٥٦ م بلغ معاوية الثامنة والأربعين من عمره وكان إبداعا في عهوان صباه وأوج ملكه ومجده .

ولم تكن في شخصيته الغريبة التي تتجلى فيها العزيمة والسطرة والدهاء. محل للعجب أو الوهن فكان تجرده سطحيًا وبساطته ظاهريًا ، وسلامة بينه مصطنعة . فهو بعيد عن التسامح والصفح والعفو وكل ما كان فيه أو يبدو منه كان نتيجة حساب دقيق لا أثر فيه للصفاة بل كان بطوى على كثير من العظمة فبنى كانت مطامعه الشخصية ونعصه الأسمى لاسلافه إلى حد الانانية تسود شعبه وتجعل منه حاكمًا مستبدًا فلقد كان ذلك منه بحكم العريضة وندافع الكبر عند سليل قريش واس أولئك

الارستقراطيين الذين رفعوا اللواء الاسلام اما الى أى حد كان
يطمع فى تسم المحدث - سواء لنفسه أو لمصلحة ذويه - فهذا ما يصعب
بل ما يستحيل علينا تحديده .

كان معاوية يتابع فكرته ويخدم شعبه قبل كل شئ . وفوق
كل شئ ..

لقد كان يحب شعبه بل قد يكون ذلك الحب هو الوحيد
الذى عمر فؤاده وملك عليه حواسه أما قضية هذا الشعب فإنه لم
يكن ليمرق بينها وبين مطامعه الشخصية فقد مزحها به حتى
أصبحت السبب الوحيد فى كيانه .

وكان لابد له - لاجرار الضر لهذه القضية - من
طمأينة لم يعمها قط ووثام يستحيل عليه تحقيقه مع ذلك الشعب
العربى الشائر المتأجج النزعات . ذلك الشعب الذى عركه وخبره
حق الخبرة لمشاطرته إياه جميع تقلباته والذى يستطيع ان يرحو
مه كل شئ . ويحشى كل شئ . ولكن كان لابد لهذا الشعب أن
يكون عظيما وعظيما بفضله .

ولكن أى طمأينة وأى مستقل كان يمكن ان يرجوهما
ذلك الذى رفعه الانتقام وحمله الدهم الى قمة المجد والسيطان باليل
من على اقلقد كان من المحتمل أن يسقط بدوره أسوة بغيره وان

ياله سيف الفقه العربي دون أن يكون لتلك القصة مدبر أو
سبب ، لقد ولد في أحضان الانتقامات العربية وحائل دسترسها
وكان مما بجميع أساليبها وتأنجها الحتمية ، حتى إذا ما قصي
بحمه طعت القوصى من حديد على هذا الشعب العظيم الجموح الذي
يحرق الدم حاراً في عروقه ، ذلك الشعب الذي كان يقصه أحيانا
شيء قليل من ثبات الحكمة والمنطق .

وما ذلك إلا لأنه رأى عمر الزيه وعثمان المتردد يسقطان
بطعة خنجر سدده يد المؤامرة . ولم ينس أن السيف الذي
نال من على كاد أن ينال منه هو معاوية .

كانت الممارعات والثورات والاضطرابات تعاود
سيرها وأعمالها المدمرة ، فتفرق بين العرب ويجعل منهم أحزابا
تقف في وجه بعضها كما دال الموت من أحد الخلفاء فسقط
يد العذر ، أو حيك مؤامرة حول أحد رؤساء الدولة ورعما
الديمقراطية فأوقعته بين حائلها أرضا أو أشاعا لرغبة غيره
ومطامعه ولما يتمكن من خدمة مثله لا على بمواهبه ودكانه .

فمن قدر لتلك الاضطرابات أن تعاود سيرتها كلما دعى
الشعب لانتداب الخليفة ، إذن قل على مستقبل العرب السلام بل
قل مثل هذا القول على مستقبل الاسلام . فكيف كان يمكن

لتلك الفتوحات الحديثة أن تقاوم تلك الانقلابات القائمة
على منازعات الفاتحين وتألمهم على بعضهم . وكيف كان يمكن
أن يستقر الأمن في تلك السلاسل التي أحصعت ويهدأ روع تلك
الشعوب التي نشرت تعاليم الاسلام فيها ، اذا كان ذلك الاستقرار
معدوما بين اولئك الذين أصبحوا بحق الفتح حكاما

كانت فتوحات العرب شاسعة حتى لقد تناولت أكثر من
نصف الامبراطورية الرومانية . أحل ولكن العالم لم يكن
يتنهي عند حدها . هناك بلاد بعيدة تقع فيما وراء البحار العاصمة
لاند من عزوها وتعديها ونشر الاسلام فيها . وهناك أيضا بيزنطة
التي كانت تقف في وجههم كهدمهم الاسمي . بيزنطة . أعظم
امبراطورية في ذلك العهد وأسمى غاية طامع طمعت اليها أحلام
غزاة العرب وحلم معاوية وبنيتة السامية .

على أن كثيرين من اولئك الذين كانوا ينافسونه عسى أن
ينالوا لأنفسهم ما كان يسعى أن يناله وحده . انه يريد - مهما
كاف الامر - أن يحل تلك المعصلة ويشل كل المطامع الحالية
والمستقلة بركيز الحكم بين افراد أسرته . فكرة تأسيس
مملكة وراثية مطلقة كانت تشغل باله وتتلاها أمام انظاره فتسحره
كان حزنه فويا وأنصاره عديدين وكان هو من جانبه يعم

بحب الشعب ذات الحب ابدى ارداد يوم فتح بحر السيف ارمينيا
وقبر ص ورو دس .

كان بو أمية بفضل سلاتهم الارستقراطية المنحدرة مد
احيال عدة يطمحون الى السيطرة على عيرهم من ي عريش
وهذا ما كان سدا فيما مضى في إراقة أسفار من الدماء ومعارعات
شتى . فقد كانت تلك الاسرة تمثل دولة بنا لها من الامتيازات
وما يبدو على رجال عيرتها من عظمة وحاء . لاشك ان الاسلام
في محره قد حفف كثيرا من عت سي امية . اعداؤه الاول . يوم
حطم الاسلام أصامهم واثابهم .

لقد أسلم ابوه اوسفيان ليقدر حياته بعد أن رأى
أن الدهر قلب له طهر المحر وان الكعبة لم تعد تأوى ثلاثمائة
وثلاث وستين دمية وصما .

ولكن معاوية ابدى معه المؤرخ . كورتيلون . في مؤلفه
« تاريخ الانسانية الاجتماعية » باسم السيد العظيم الكافر الذي كان
يشرب البید حهرا ويبدل بآراء وهميه محاولا ان يلهى الشك
حول ايمان مؤسس الدولة الاموية واحلاصه لدينه على الرغم من
انه كان مسلما كل الاسلام قلبا وقالبا . .

فسواء اكان بو أمية مسيحي ام وثني فان الدم الذي كان

يسيل في عروقهم وفي عروق معاوية كان من أعرق وأبل
دماء بلاد العرب .

لم يك يحشى أن يقف في وجهه إلا أبو هاشم فهم ليسوا
دون بني أمية حساً أو نساً ومثلهم يفحرون بحكمهم في الأقدمية
خصوصاً وان هك مافسات قديمة العهد مرت بها الاجال
ووقفت بمطامعها في وجه مطامع بني أمية

لم يكن من يمثل بني هاشم الا سلالة عباس بن عبدالمطلب
ولم يفكر عباس في حياته في الملك بقدر ما كان معاوية يفكر
في أن ينأى نفسه ملكاً . ولسوف يفكر أعقاب عباس في ذلك
عدما يعدون بني أمية عام ٧٥٠ ليحكموا بدلا منهم . فاش
طل خالد بن الوليد حياً فلا شك في أنه كان يمكن أن يكون
مافسا قويا لما كان عليه من صلابة الرأي والحزم وما يتمتع به من
بهجة فتوحاته ، ولكن حالدا لم يكن ، وكان بين العرب الآخرين
بعض المشغوفين بالمعارضة ولقد عارضوا فعلا ولكن بدون
حدوى ، لا شك في أن معاوية كان يرى في نفسه سيدا آمراً
مطلق السلطة ليس له أن يقدم حسابا عما يفعله الا لربه وانه كان
يشعر من نفسه بأنه حليق بأن يخدم قضية ايمانه اكثر مما لو
كان سيداً منتحلاً لعدة امم متحدة ولكن تحت رحمة الشعب

وتقلاته . على أن معاوية كان ماهراً لقا لم يفسرع في تأسيس
مملكة بين شعب مرهف الاحساس كالشعب العربي حيث كان
الخحر يحول كثيراً دون تنفيذ أحرأ الخطط واحكمها .

ففي فجر عام ٦٦٢ بدأ بتظيم حرس لراسته ليل نهار
وانخذ من دمشق مقرأ لأقامته حيث شاد قصرأ بديعا شامخا
نقل اليه نظام الشريقات المتع في بلاط . الساسانيين . ثم أوحده
نظام الحجاب الح . . . ولم يلبث أن تظاهر معر أصابه في
ركبته نتيجة جرح قدم فكان يستقل وهو جالس على مفعد
مرتفع هو في الواقع عرش . أما في تقلاته فكان يحمل داخل
هودج يحيط به حرس فاخر في حين انه كان يرتدى لباسا بسيط
يتعارص تماما مع ما كان عليه أفراد حاشيته من حاه و ثراء
أما مقابلاته فكانت رمزا للدهاء والعظمة .

وفي عام ٦٦٦ بدأت مسألة الوراثة تشغل كل افكاره . ولكنه
حلها بأسط الامور وأدهشها فاندع لاسه يريد الملعبون لقب
حديدا غير معروف عند العرب وهو . ولي العهد . وطلب من
جنوده أن يدينوا له بيمين الطاعة والاخلاص . ولمكن كسار
العشائر في مكة والمدنية أنوا أن يخلصوا مثل هذا المييم .

كان هذا العمل يتعارض مع التقاليد الاسلامية ولكن

معاوية تجاوزها واحتج الجميع ولكن واحدا لم يقف حثلا دون
تففيذ مشروعاته فطلت تسير سيرا طبيعيا نحو تأسيس المملكة .
هكذا انتقلنا من عهد الرؤساء المنتحين الى عهد اولياء العهد ،
في الملك والورثة الشرعين . كما انتقلنا من عهد اخمهورية
الديمقراطية الاشراكية الى عهد الامراطورية العربية المطبوعة
بطاع الاوتوقراطية البيزنطية . وهكدا حل الوشاح الدمقسي
محل العباة المتواضعة التي كان يرتديها الخلفاء الاولون .
وبذلك وضعت مبادئ المملكة الامراطورية الاسلامية
وتأسست ملكة الامويين .

انه لا يحق لنا التفضيل بين شخصيات تاريخ شعب وتميرها
على غيرها كما لا يمكن ان نحول دون اعجابنا تلك اللبقة التي دافع
بعضهم بها عن قضيتهم حتى طمروا بمطامعهم خصوصا اذا
كانت تلك المطامع تمتزج بتاريخ شعب وعظمته . تلك كانت
حال معاوية بن أبي سفيان .

ان الدم الطاهر لشهداء كربلاء العظماء عند ما لطنخ يزيد فاض
ظلما على معاوية اذ انه كان بعيدا كل البعد عن تلك المأساة المؤلمة
الرهيبه لانه مات في الرابع عشر من شهر رجب سنة ٦٠ (١٨)
أبريل سنة ٦٨٠) في حين ان مذبحة كربلاء وقعت في العاشر من

شهر محرم عام ٦١ (١٠ أكتوبر سنة ٦٨٠) أي بعد ثمانين شهر
لموته . وهكذا تكون قد وقعت خلال حكم أمه يزيد الأول
ومع ذلك إذا كان اسم يزيد الذي لا يحسر أحد أن
يدافع عنه وظل منه لجميع أحيائها الإسلامية — قد سبب الطوائف
أنني لطخته فانا لا يسعنا إلا أن نسأل لماذا احييت ذكرى
أبيه بذلك الشك الظالم .

وخطر الاسلام طهرة جديدة بعد معاوية وفي ظل المملكة
التي أسسها .

إن الحرب الحظوة ليست ولادة اليوم فقد مارسها العرب
سجاح مدبف والف عام وانك لسوف ترى ذلك عيانا إذا
مارفت معي رصف تلك الحيوش الجديدة الساحق .

فهي عام ٧٠٦ في عهد الوليد الأول خامس خلفاء الامويين
وحفيد معاوية لآخيه نشر الفتح الاسلامي اجنحته

شعر الوليد بصيق مملكته به على حد تعبيره وسعى الى
توسيع امراطوريته وامتدت حوشه حتى حارت بلاد
« التبت » وسارت الى حدود الصين . في نفس الوقت الذي
عرا فيه جيش عربي أحرر بلوخستن وبلاد الافغان واحتاح
السجاد مدفع نحو مهر « الحانكوس » حيث استقر . وهكذا

لم يمض عشرون عاماً حتى كات الولايات الاسلامية الخاضعة
لخلفاء الشام تعج في شمال الهند وغربها .

واكتشف رحالة من العرب شواطئ الهند الغربية من
سورات الى بومباي ومن بومباي الى بجلور وفما وراء ذلك
حتى ساحل بورما فندا لاى .

لعمري اننا لسائل أنفسنا في كثير من الدهشة كيف استطاع
اولئك الرحالة دوى الارادة الحديدية في عصر لا يعرف الصلب
ولا الحار وسرعة الحركة الميكانيكية ، ومع ما لديهم من الوسائل
المحدودة أن يحوصوا تلك الحار الرجراحة في قوارب خيعة
لو لم يكن ميلهم للمصاعف المسبب وشجاعتهم بحدان ما يؤيدهما
في تعاليم ايمان قوى يدعو إلى التضحية .

حقاً أنهم كانوا يسيرون في محزاه السواحل ولكن المسافات
التي كانوا يجترونها كانت عظيمة تدعو الى الاعجاب . فهناك
المحيط بما فيه من مفاحات رهبة وأصير فخائية قد يتلهم
في جوفه السحيق وقد يقذف بموارهم على الصخور فتتطم
كثير منهم قد صل وهذا أمر طبيعي لا بد منه وكثير منهم يبح
في البرول في سواحل مهجورة حيث ظلت آثار نشاطهم وحرأهم
ومدنيهم عالققة بتلك الارض النائية الغربية .

ان تأثير العرب الذي لا زال قائما في أيامنا في تلك الحرر
العبيدة من المحيط الهادى والمحيط الهدى لاحدى الأدلة القاطعة
على عبقرية استعمارهم .

وبعد مرور أحيال تنع البرتغاليون اولاً ثم الاسبانيون
فالهولنديون آثار الملاحين العرب الاول في تلك البحار المجهولة
وكان لابد لذلك الملك الذي يرغب في . المحال الشاسع . من
قواعد جديدة في البحر المتوسط وهذا مادعاها الى الاستيلاء على
كريت وسردينيا وكورسيكا وجزر الباليار

وفي عام ٧٠٩ أرسل حاكما على أفريقيا (مراكش) شيحا
قوى الشكيمة هو موسى بن نصير وروده بأمر فتح اسبانيا
ولكن ابن نصير كان شيحا عتيا فمن كان في الستين مثله
لا يستطيع أن يجعل من نفسه قائما على الرعم بما قد يكون متصفا
به من البطوة وقوة العربته الا اذا كان ذلك الرجل قصراً
ولكن ابن نصير الذي دلى في حداثته على كثير من المواهب
الحربية القيمة لم يعد الا شيحا فانيا حاد الطمع كما يتبين لنا ذلك
فيما يلي . ولذلك فانه سيعهد بدوره هذه المهمة الى الفتى المقدم
طارق بن زياد الذي حيا عبر البحر أحرق الاسطول تحفـيذا
للحند على عدم الردة والفرار وقال لهم كلته الخالدة (ها أنتم أولاً .

البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق
والصبر ..) قال ذلك ليستميتوا حتى يتصرفوا وقد حصل ذلك
كما سيمر بك . فقد كان طارق سيد الفرسان وخير من قاد الرجال
وألهمهم بعباراته الحماسية .

في أبريل سنة ٧١١ سار طارق من ريباد على رأس أربعة
آلاف عربي وثمانية آلاف من البربر وعبر المصيق وقفز — اذا
صحح هذا التعبير — على صحرة كاليه ، الى أصحح تحمل اسمه
مد ذلك العهد (جبل طارق) وجمع جوده في الجزيرة المحاصرة
وهزم الدوق ، توديمير ، حاكم الأندلس في كسيريس ، وسار
نحو أشبيلية

وبعد ثلاثة أشهر أى في شهر يوليو التقى طارق عدد صواحي
« وادى البهكا » بقوات العدو الرئيسية .

ها هو ذا طارق امام رودريك ملك الغوط الذي حشد جميع
قواته مع من انضم اليهم من بقايا جيش « توديمير » وقوات
الدوق « أو ناس » الحديدة وكذلك رماة الببال الاراعونيين
التابعين لدوق « ويتزا » فتألف من جميع اولئك جيش يقدر
بثلاثين الى « ألف رجل تقريباً »^(١) . وكانت الموقعة تنذر بحرح

(١) عندما هزم الدوق توديمير حاكم الأندلس لأول مرة في هرب « أشبيلية »

النصر وكل ذلك كان موقوفا على سرعة حركاته . كان طارق
جريئا فعامر بكل ما لديه في سبيل الوصول الى ما يريد فقطهر
بالهرب فحيل الى العوط أنه تحلى عن القتال ونوهموا أنهم
انتصروا وطاردوا مجموعهم القائد العربي الذي أدرك السهل الذي
اختاره لينظم فيه فرسانه^(١) .

وبعثة قتل طارق راحعا وحمل على العدو بمجموع فرسانه الذين
كان يحركهم تلك السرعة المدهشة التي تتميز حركاته وهاجم
العدو ودحر فرسانه الثقيلين بالحديد وقد استولت عليهم الدهشة
ودفعهم الى الخلف نحو النهر وظل العرب يصرون بالسيف
ولا هوادة ولا شفقة وكانت المذبحة بحجة رهبة .

وفر الدوق « نودبير » مرة أخرى وقتل الدوق « اوباس »
وهو يحاول أن يجمع شمل رجاله واحد الدوق « ويتزا » أسيرا .
وسقط الملك رودريك عن جواده وظل يقاتل قتال الأبطال —
ولكن عشا — فقد كان أمامه ذلك الفتى العربي الذي حاله

(١) واد وصف معركة « فجر » في ربيع سنة ١٠٠٠ م . وهي
عن هذا التاريخ « سنة ٤٠٠ » وهي « سنة ١٠٠٠ م » وهي « سنة ١٠٠٠ م »
دمشق عام ٦٨٥ م . ر « من أخصه » « سنة ١٠٠٠ م » « سنة ١٠٠٠ م »
الأول . « سنة ١٠٠٠ م » « سنة ١٠٠٠ م » « سنة ١٠٠٠ م »
« سنة ١٠٠٠ م » « سنة ١٠٠٠ م » « سنة ١٠٠٠ م »
« سنة ١٠٠٠ م » « سنة ١٠٠٠ م » « سنة ١٠٠٠ م »
« سنة ١٠٠٠ م » « سنة ١٠٠٠ م » « سنة ١٠٠٠ م »

الخط فقد اثني عشر ألف من رجاله إلى النصر . وغرق رودريك
وهو يعبر النهر .

وانجيه طارق بعد ذلك نحو طليطلة واكتسحها . وحاول
العوط انتعاش أن يقاتل موه لآخر مرة عند مدينة ايسيجا ،
ولم يفلحوا واستطرد طارق زحفه الساحق إلى ملقة ، وغرناطة
واستولى عليهما وفي نهاية عام ٧١٣ كان قد استولى على
اسبانيا بأسرها وضمها إلى امبراطورية العرب العجبية .

وعلى الرغم من كبر سن موسى بن نصير أبحر إلى اسبانيا
التي عبر حاكما عليها فاستقبله طارق استقبالا حافلا ووضع بين
يديه أسلاب الحرب ثم سار على أقدامه إلى جاب حواد رعيمه
بعد دخوله طليطلة رسمياً . وكان أول عمل أقدم عليه ذلك
الشيخ الكذيب عند استلامه رمام الحكم أن أمر باعدام جميع
الاشراف من العوط .

وهل تعلم لماذا كوفي طارق على خدماته وانتصاراته ؟ ..

بصفعة على وجهه !!

ودبت العيرة في قلب نصير من انتصارات طارق وحب
الشعب له . فهي ذات يوم أبحى عليه باللائمة أمام اجيش أكمله
وعرله من القيادة وكان طارق طيعاً فلم يحرك ساكناً تحت

ذلك السيل من الاهدات ولكن الجيش اهتز لتلك الاهدات
ودبت عوامل الثورة بين فرسانه ورجاله .

واندلعت ألسنة الثورة بعيداً حتى وصلت أسوأها الى الخليفة
الوليد فاستدعى ذلك الحاكم الظالم وقوله فاسترد صارق قيادته .

لاشك هناك في قيام ثورات . فلم تحل أية فتوحات وحصوصاً
فتوحات العرب من ثورات ، وحملاً تولدت حصومات وحشية
بين مختلف حكام العرب في أساليب فتنازع الحكام دون عمل
شيء . إلا المارعة فيما بينهم حتى عام ٧٢٠ . وعندما عين الخليفة
يزيد الثاني السمعاني ممالك الحولاني حاكماً على أسبستان . أراد
هذا الأخير أن يتمم عمل الحاكم السابق أيوب بن النعمان الذي
عرا " ريو ، فسار بسورته وحاصره ولور .

لم يك شك في سقوط المدينة العتيقة لوم يصل الى نجدتها
دوق عشقونه بجميع قواته

وقتل السمعاني في المعركة الى شئت على طريق روماني
قديم بالعرب من تولور . ولذلك أطلق على هذه المعركة اسم
بلاط الشهداء .

لم يكن قد انقضى قرن على موت النبي (صلعم) - سنة ٦٣٢ -
وها هو ذا الاسلام قد انتشر وأصبح عظيماً .

على أن المؤسسة لم تدن إلا بفتح اسبابا ومعددها . ولم
تستول هزة الدعر على العرب المغمووم الا عندما وطأت أرض
أوروبا وخصوصا فرنسا فرسان العرب على ظهور جيادهم .
اني أريد أن أحدث إليكم عن فني يستحق فصل أحلافه
الجماعة وشجاعته نداء خاصة في تاريخ فتوحات العرب هو
عبد الرحمن الثاني . الأمير الأموي الذي طالما حلقوا بينه وبين
عبد الرحمن آخر أموي مثله ~~ممكن~~ بعد ثلاثين عاما أي عام
٧٥٠ من سلب اسبابا من العباسيين في بغداد وأنشأ مملكة
مستقلة بتأسيس أسرة الأمويين المزدهرة في قرطبة .
ان عبد الرحمن هذا الذي سأحاول بسط تاريخه هو
عبد الرام . كما يذكره التاريخ اللاتيني وهو الذي قاد العرب
فيما وراء شه جزيرة اسبابا عبر البرية الى أحمل بلاد أوروبا
وكاد يصبح ملكا على فرنسا .

الحرب التاريخية الخامس

غزاة العرب وقتوحاتهم (٢)

عبد الرحمن بن عبد الله (الثقافي)

— فتح مدينة بوردو، — «أود»

دوق غسقونيا — فتح بازاس واوتان

وتور — موقعة بواتيه وشارل مارتل —

المجاعة وسب الحروب الصليبية — السابا

اوربانوس الثاني — بطرس الناسك —

موقعة مالازجرد — البارسلان — الحرب

الصليبية الأولى

سأحدث اليكم في هذه المرة عن شخص جد عجيب حخته يد

الايام فطل محولا و مره التاريخ حثيثا فقيت صفحاته مضوية

وتناولته الالسنه فخلطت بينه وبين سواه .

وأعرب من ذلك أن تاريخ العرب لم يحل من ذكراه الا

ذكرى مروره بحاقله في بلاد فرنسا الجميلة وأحاط هذه

الذكرى بأمارات الدعر، ثم لم يلبث أن تنفس الصعداء ورحا

مسروراً بموته المأساوي وارتداد جيوشه كأب كاسا قد زال
عن صدره أثر حلم مرعح وطبع !

أما ناريج العرب فقد واراها وذكراه تحت الرغام . واليوم
لا يدركه أحد أو قل أن يوحد من يدكر هذا التي الذي صال
و حال وحعل من التريج مبداء لرهاه الجرافيه المحيية .

فها الشاب سليل الاسرة الاموية الذي أرسله اخيه عمر
الثاني من عند العرب إلى اسبانيا عام ٧١٨ ليتدرّب على الحروب
أو لثقله بعداً عنه إذ أنه كان في الترف كثير الحركة بعيد
المطامع ، على جنت عطية من الصفوف . وقد كان ملماً بكثير من
اللغات الاحدية كاللونية واللاتينية وبعد حجه إليها فبق
بأنه في^(١)

على أنه لم يظهر على المسرح إلا عداة هزيمة وموت السمع من
مالك حولاني في مدينته تولوز ، (بلاط الشهداء) عام ٧٢١ إذ
تولى عبد الرحمن قيادة تلك الخيوش المهزومة وعاد بها إلى مدينته
« رين » وحدث عندئذ عزيمة ومواهبه العسكرية فظهرت
وجهه بعد انكسار سيقه فجمعت من هذا الفتى قائداً وقائداً

١١. هذا الاسم من شبه وهو - وري في - في سريج عربي من عند
الاسرة الاموية

محكما يلم شعث جيش بأ كمله يبطمه ويصم اليه وحدات جديدة
ويدرسها في مدرسة الانتقام العاجل لتكون على أهبة العمل متى
دقت ساعة مطامعه ونهضته .

وأدت تصرفاته المحمكة وحب الشعب له الى القيام بأعمال
حكم اسبانيا عام ٧٢٢ عندما اسده اليه الخليفة يزيد الثاني . على أن
رعاية عبد الرحمن للجيش وسجاءه على رجاله الذي كان يبدو
منه تبذرا وان كان في الحقيقة لا يعد تدبرا وما كان يستحقه
هؤلاء المحاهدون أكثر من ذلك . وقد أثار حذر عملاء الجيش
القدماء وحقدهم فتألبوا على الأمير الخوادم وأمروا فيما بينهم عليه
لقد وصعوا كرمه موضع التدبير وتسامحه موضع الضعف وذكاه
موضع الطيش وعوانه الى حاكم افريقيا (مرا كيش) وكان هذا
الحاكم يحسد هذا الاموي على حب الشعب له ويطمع في مكانته
فتمسك بفضل التفارير المكاذبة التي رفعها عنه الى الخليفة في
دمشق الى اقالة عبد الرحمن واستبداله في حكومة اسبانيا برعيم
جديد هو ابن شهيم الكابي

كانت أخلاق حاكم اسباب الحديد على تقيض أخلاق
عبد الرحمن فان شهيم كان رجلا رديا هادئا فاضعا في قوله
ومتهاديا ولكنه على الرغم من فمائله الادارية وعدله الصارم

وعلى الرعم من عضديه الواسعه وتوزيعه الارض البور على اشعب
على الرعم من ذلك كله لم يتمكن من استماله الشعب اليه ولا من
اكتساب ثقة الجيش به

إن من الدس فيه كثرة النقشف حتى لتصح فصائلها مدعاة
للمضجر والسأم . وعلى الرعم من فصائلها الزهفة لا يحدث أى تأثير
فعال فاما تدعو الى الاعجاب ولعلها لا تدرك ما تنصر اليه
نفوسهم من الحب . تلك احدى سحر بات القدر العامص . ومع
ذلك كله ظل عند الرحمن معبود الجميع . يثل في نظرهم صورة
الزعيم الطريف الذى يتأجج سحرا وهذا السحر هو أيضا احدى
سحر بات القدر الى يتعدى تفسيرها . أصف الى هذا السحر ما حل
به من ظلم من حراء اقلته وهذا ما زاد حب الشعب له وتعظيمه
به . فقد كان للشعب مثله شعاع من أشعة الشمس وقد انقشع
الضباب عنه فحمل الى القلب المسرة والسعادة .

ولكن مما يؤسف له ان سحر تلك الشخصية سيحدث
عكس ذلك التأثير في غيرهم . ليس شك في أن الطيفة الحاكمة أو
الارستقراطية أو تعبير أصح اذا شئت دوى الحاء والعظمة كانوا
لا يحبونه . لقد كان في نظرهم بعيدا عنهم وأميرا أنانيا وأهمهم
ليكرهوه لاقل من ذلك ، سين عندهم أسف الدهماء والفقراء .

والنؤساء والتعساء والعجزة على هذا 'مدرس' الشب الذي كان
تظاهر بينهم تلك البساطة المتدهية لبشائرهم ملاهيهم البادرة أو
يستوصحهم عن متاعهم ويؤاسهم في أحزانهم . والذي كان
يسب في مسكن من أصابه الدهر بسوء اعزبه في مصابه
وترك دون أن يشعر به أحد ما يحمله في عنقه . وسوف
أسف المسيحيون عليه أيضا لصراحته ونسجه وعدائه . واليهود
للاعمال التي سدت في وجوههم ، تعد هذا لامير المسرف في
ظفرهم وبذخه

أما الخس من يدسه أبدا . فقد شطره جميع مسراه كما شطره
متاعه وحرمانه في سيره المصى الصواب أد كات السماء تتحمد على
الجروح والتعب يهت المفضل ويحطم لاجسام .

ورافق حب التعب عبد الرحمن في عزله وبدأ للعيان جهاراً
قد وله الشعراء بقصائدهم يتدحونه . وملا القصصيون مخيلات
الشعب بحوادثه ومعامراته واحصوه مهلة من المعالة والتعظيم
والشعب كما يعلم يمل إلى أعمال البؤلة كما يحو على من مسه
الدهر دهمه .

سواء أكان ذلك صحيحاً أم لم يكن فسمع القصائد التي
تصف . بموسيقاه الموزونة ، الاحلام الخرافية كان مستملاً

عشا حاولوا أن يمسعوا مثل تلك المظاهرات الادبية ، فان ذلك لم يحل بعض الايدي المجهولة دون كتابة اسمه على جدران المبنى وعمرها ، سيما كانت القصائد الهجائية تلصق على جدران قصر الحاكم الجديد .

وقام خلفه ابن شميم بعملين باحثين عند سمح جمال البيريبييه ثم استأنف حملاته من ناحية أخرى فعزا صفى نهر الرون من مدينة « أرل » حتى مدينة « ليون » . وفي يوم من عام ٧٢٥ أراد ان يجتاز النهر . أصابه سهم أوداه قتيلا . لم يكن من السهل استداله . فقد تناوب الحكم بعده أربعة رؤساء . ولكمهم أفيلا حتى عين الخليفة حاكما على اسبابا من لدنه يدعى عبد الكافي ، لم يقع هذا الاختيار موقعه الحسن . فقد كان عبد الكافي حثيفا محبا للمال قاسيا فعصه الجميع ونقموا عليه .

وفي عام ٧٢٧ ابلغ ضحاياهم شكواهم للخليفة الجديد هشام الاول فأوفد من لدنه رسولا وروده الامر بالتحقيق ومنحه السلطات الكافية لاقاع العقاب بالمدلب الاثيم . ويجدر الاعتراف بأن هذا التحقيق قد اثبت اذاعة عبد الكافي إذ قد حكم عليه بعقوبة مشيئة . فقد رصت ذراعا خلف ظهره واجلس على حمار

سار به في انحاء عرناطة يتبعه الشعب الذي طالما اضطهده صاعدا
ومهللا وشائما . على أن الشعب لم يهتف فقط بسبه فهناك اسم
محبوب في جميع انحاء اسبانيا من اسكواحيها الى قصورها الشاححة
كان يردد في الفصاء ويردده شعب بأسره يطالب بعبودية
محبوبه عبد الرحمن . فاحرق عبد الرحمن من عرنته في اقصى
« الاسرا مادور » وعاد الى عرناطة .

يقول « هيوارت » المؤرخ الفرنسي انه كان لابد من وجود
حاكم فأعادوا عبد الرحمن بين تهليل الشعب وتكبيره الى المنصب
الذي طالما ملأه كمناته ولم يحرم منه الا ظلما وعدوانا .
وقضى هذا الامير المدراربع سنوات ليصبح ما فاته ويعيد انضمام
الى نصابه . فتناول الجيش وأعاد تنظيمه وتدريبه وأعد حملة تجمع
السلح وحمز هذا الجيش الذي كان يحتاج اليه لتحقيق أغراضه
إذ كان لعبد الرحمن مطمح ثابت كما كان لكل الامويين
مطامح مثله .

لم تحب أية أسرة أخرى غير أسرة الامويين رحالا بمثل
ما كان عليه رحالها من الطموح وشدة العزيمة والاعراض
السياسية الواسعة والآمال الجريئة الوثابة كانت دماء هذه الاسرة
البييلة تجري حارة في عروق عبد الرحمن . فلم تفت عرنته من

عزمه بل ردت إيران مضامعه اضطراما في صدره فاستسلم لجلبه
احمبل وأحد بداعيه طوبلا . لقد كان يرعب في بسط سيطرته على
ورسا ويود لو أنه استطاع ضمها الى اسيايا لينشي . منهما
امراضوريه مترامية الاطراف ويالها من امبراطورية !

فاداما حانت سنة ٧٣٠ ووقف عند الرحمن عند سمع حدل
البريديه الشاهقة وتوهم في طفرة من الحساس ان ايس في تلك
الحل . الا حاجرا يسهل عليه اختياره . اد ذاك رالت تلك العقبة
من وحده ولم يعد لجلال البريديه أى أثر في نفسه . حقا بان
هناك (بواتيه) ولكن بواتيه كانت لا تتران بعيدة بانيه ...
كان لا بد له من أربعة أعوام لاعداد الحملة ؟ . قد تعترضون
على بأنها كثيرة وربما قلتم بأنها قليلة غير كافية للقيام بمثل تلك
المغامرة العظيمة .

الحقيقة ان ورسا لم تكن في ذاك العهد دولة بل ولم تكن أمة
متحدسة متمدينة . لقد كانت مقطعة الاوصال محزاة او عدة
دوقيات وإمارات . فعلا عن أنها كانت فريسة لحروب غير
منظمة يثيرها تنافس امرائها ومازعاتهم المستمرة . وكان الشعب
يرزح تحت اعداء نظام الاقطاعيات واستبداد كهنة جشعين على
حانب عظيم من السطوة وشدة الأس . لم تكن ورسا تتمتع

ثاني نظام متناسق الى ما بعد شارلمان العظيم كما كانت بقصتها
أسباب الضمائية والامن . وظلت الحال على هذا المنوال حتى القرن
الخامس عشر اذ تولى لسلطة لويس الحادي عشر فاستطاع بمحنه
ومكره أن يكون من تلك الاقطاعات وضا قوميا متحدا

لم تكن و ساء في القرن الثامن غير ظل ضئيل لما تبدو عليه
الآن من تمدن والرقى ولم تكن هي فرنسا التي نعتت ببلد
أحيالها ووقف على مدى عظمتها أكثر من واحد منا وأحبها
وأعجبها وافتن سحرها وتأثر ثقافتها وحضارتها .

لم يكن أمراء فرنسا كذلك الا نشأة برابرة عبيطى الطباع
ليس للتفاهة معنى في نظرهم بل كان أعليهم أميين لا يعرفون
القرابة ولا الكنتانة . ولم يكن أمراء لومبارديا وعسقوييا
واسكيتيا وانجيفان وبيكارديا وورمانديا الدين كانوا يتنازعون
باستمرار فيما بينهم ويشهرون السلاح في وجه ملوكهم . يعدون
شيئا يذكر ، على أنهم كانوا على رأس قوات مسلحة هائلة . محصنين
حاف فلاع مبيعة تعجز عن دكها هجمات المعيرين ، أصف الى
ذلك ما كانوا يتمتعون به من المواهب الحرية وما كانوا يشعرون
به من الذعر الذي خلفه في قلوبهم حوار السراسنة لهم والتناح
التي قد تسمر عن غزوات هؤلاء السراسنة لبلادهم . أما هذا الذعر

الذى لم يفارقهم لحظة واحدة فقد صاعف في شجاعتهم وحملهم على القتال الابطال والدفاع عما يملكون دفاع المستميت .

لقد عزا العرب قبل مجي، عبد الرحمن بن لاد فرنسا التي طالما
تآقت نفوسهم اليها واستولوا على « باربون » و « كركاسون »
ثم « بيم » وقد تمكن الكونت دي تولوز باعجوبة من وقف
الغزاة الساعين من العرب في وادي « دور دونيه » ولكن لأم
قصير فلم تلبث أعلامهم ان شقت طريقها مدفوعة الى الامام في
وادي الرون حتى بلغت « آرل » و « امبيون » ثم « ليون » و « نيم »
وفي النهاية حققت فوق حصون سانس .

على ان الحالة مع عدد الرحم كانت أشد خطورة . فلم تكن
حمته عبارة عن عيوات بل حملة مظمة يتدفق عليها بلا انقطاع
سبل السحبات التي كانت تشمل ورقا بأكملها (١)

حاول عدد لرحم ان يعود السير في طريق تولوز ، على
ان رحلا آخر طموحا كان يقطع عليه هذا الطريق وهو عثمان
س انى تراعته قائد القوات التى عهد اليها فى المحافظة على البيرينيه
ومما يروى عن هذ القائد الذى كان يريد ان يؤسس لنفسه إمارة
مستقلة انه ذهب صحبة شركائه له دوق عسقونيا اذ روجه من

(۱) - اسم، فاعل، مفعول، ظرف، جار، حرف، متعلق،

استه لاميحيا عسى ان يصع حدا خطمه ويجعل منه حليف له
كان عثمان بن ابي تراعة باقرانه من كريمة دوق غسقويب
يعتمد على مساعدة الى روحه وتأيدته له . بعد ان سى عبد الرحمن
ومين الطه به الذي حنقه بين يديه . على ان طلائع جيش عبد الرحمن
لم تلت ان ذكرته يمينه في موقعة . الباب . (بوسيردا) حيث
هرمته واصطرتته الى الفرار . وقد فوجئ عثمان في ثناء فراره
بالقرب من باقوره . ولما رأى روحه لاميحيا قمع في أيدي
الغزاة التي بمسه في هوة سحيقة ونصى بحه . !

ولم نكك تلك الحيلة الوحيدة التي وقعت في اثناء حملة
عبد الرحمن كما أنها لم نكك الاحيرة اذ قد أعقبتها خيانات
أخرى .

وبعد اقص . تلك الفترة احتل عبد الرحمن . بايون . وأوش .
ثم . باراس . وكان دوق غسقويب يتعقبه عن كذب وحاول
عشا ان يوقف تيار حمله ادم . بوردو . الى كان بتولى
الدفاع عنها دوق اكتاي .

كانت مدينة بوردو . المحاطة بسلسلة من الاسوار
الرومانية العظيمة قلعة منيعة وقد رادها ماعه ما اصفه اليها أهلى

اكتتيا سورهم من وسائل التحصين . وقد دارت فيها رحي
امعارك عيفة أربعة أيام متتالية ولكن بغير جدوى . فقد
استولى عدو الرحمن على المدينة عمرة على الرغم من استئصال
المدومين عنهم ويطولتهم واحتل العرب المدينة وادسوا
فيها .

لم يعد لدوق اكتتيا بعد سقوطه نوردو ، ملك يدافع
عنه ، على أنه كانت لديه تحت في استطاعته أن يضحيه على
مذبح مظامعه فاسرع في تقديمها إلى عدو الرحمن ! كانت شقيقته
حملة رائعة الخيال . لقد شعرت عدو الرحمن بحملها وتودد إليها
ولا طمهم ولكن لم يستسلم لها ، كان يقدر أن وقته قصير وأن
في وسع أية امرأة أن تنتظر أما المظامع فكانت في المصام
الاول لا تحتمل اشهرها ولا تأخيرها

والآن يد عدو الرحمن بزهرته وبجوايه إذ أنه سيستره
حلال فرنسا المحمولة من الخوب إلى الشمال . لسوف يحتارها
بحاريا يرفرف عليه تحت سمائها . ولسوف يحتارها شاعرا مترما
بحمال عاصفها وحالما بما خدمته في نفسه من سحرها وببها متغنيا
بأوهامه المنتشرة . إذ أن ما كان فيه حلم ولكن تصوروا أنه
حلم بملاء السلاح وطعنات تحطم الاوصال . فهذا الحلم بما فيه من

سحر سرا به الدهى - يبدأ عند عبد الرحمن ورسانه باحتياز سهول
بورغويا وهضابها الناضرة . لقد احتارها وجنوده على أصوات
المرمار وقرع الطبول تفيض وجوههم بما تنكبه صدورهم من
نشوة وفرح . ثملين بما أحرزوه من انتصارات وما وصات اليه
أنديهم من أسلاب وما تطمح اليه نفوسهم من آفاق جديدة
وآمال .

وكان الطبيعة قد دعتهم الى أحم ولائها . وكان الربع
أراد أن يرحب بمقدمهم فارتدى أحمل حمله ونجلى فى أهلى
محاسنه .

وقد اجتار المئات والالوف منهم طرقات فرسا واحترقوا
عائتها الكثيفة ووضوا بقاعها المردهرة وساروا فى وديانها
الصاحكة حتى لكأن قطعة من السماء أو ركبا من الحبة قد
رفرف فوق هذه الوديان ثم استقر بين حواشها وعلى ضفاف
الأنهر حيث تفرقت فطرات اليبايع الصافية كأنها عبرات تسيل
من مآفى حساء يضطرم فؤادها سار اللوعة والآسى .

فأدما أرخى الليل سدوله وحل بالاكواح البائبة الى
هجرها سكانها صرب العرب أضابهم وأوقدوا نيرانهم وحيث
ترتفع صيحات الفرح من أعماق صدورهم وتقف الأسيرات

الشقراوات داهلات يطرطن الى هؤلاء الفرسان الذين قدوا من
الصخر وقد تحولوا الى شعراء يتفننون بما يسلب العقل ويذهل اللب
واحتاحت تلك الحفافل اللدان والقرى واحدة إثر واحدة
وصهلت حبيدهم ورحاورفست طربا على صليل الاسلحة وبريق
الرماح وفي وياه الاعلام التي نحقق مع الريح .

واذا حاول بعض الامراء بحفافلهم الثقيلة ان يعترضوا
سبيلهم فسرعان ما يشتتون شملهم . وكان يسود ان ليس هناك
ما يستطيع الثبات في وجوههم أو مقاومتهم سواء كانوا رجالا
أم حصونا أم قلاعاً . فقد كانوا يكسحون كل شيء أمامهم
ويحطمون كل شيء في اندفاعهم . ثم يستأنفون سيرهم على ظهور
جيادهم المظهمة السريعة دون ان يعترض سبيلهم أحد .

ككأت المدن تسقط وتتهار أمامهم على الرغم من أسوارها
المسيعة وأراجها المحصنة وحدرانها السميكه والحنادق المليئة بالمياه
الأسنة اللزجة التي كانت تحيط بها .

ها هي ذي مدينة ، أوتان ، تدو بأسوارها المزدوحة
وقلاعها الشامخة كأنما هي تستحم بأشد الهجمات عفا وهولا
وكن المدافعون عنها لا يشكون في مناعتها فاحدوا يعدون
العدة لحصار طويل أو دفاع عفيف . ولكن فرسان العرب

هجموا عليها بصوفهم المتراصة فاهتزت الارض تحت حواف
جيادهم واهارت الابواب تحت قوة صعطهم واندفاعهم . وقد
نالت السال من المئات منهم . ولكن من هبى منهم على قيود
الحياه محطى حث القنبل وتدفقت حموعهم كالسيل الحار
في قلب المدينة . كان أبين الحرجى وحشرة المولى يسمع في
الازقة والطرق التي تكسدت فيها حث القنبل وتناثرت
أشلائهم واختلطت بحث جيادهم المتتورة . وبغلى الصبيح
والصراخ حتى اهتزت له أحواء الفضاء قطعى على صليل السيوف
والرماح وعوين السماء . . . لقد استولى العرب على المدينة .

وفي أوتان عاد الرهان ديرهم الشهير وفروا هائمين على
وحوشهم أمام هؤلاء الذين كانوا يطلقون عليهم اسم أساء الشيطان .
وما هي الا بضعة أيام حتى عاد أولئك الرهان الى المدينة المحتلة
والكهم لم يصدقوا ما وقعت عليه أظفارهم وما سمعته أذانهم
وتملكك الدهشة اسفهم عندما سمع عد الرام (عبد الرحمن)
يقول له باللغة اللابدية لفصحى انه لا يريد سوا ناهل الكتب
وانه لن يبال أحد منهم — من الشيخ المهيب الماش أمامه حتى
أحمر راهب بينهم — سوء سواء مه أو من أحد جنوده وعديه
أمر الأمير المسلم بأن ترد أن الرهان كؤوسهم الذهبية

وصلهم وكتبتهم المقدسة وما حرمهم وشهدنا بهم وملاهم
الكهوتية المطرزة بالذهب والعصاة واحيرا دبرهم وقدرد اليهم
سلما

واما لتسائل لماذا لم يسكن عند الرحمن مثل هذا المسكن مع
دير القديس مار ان العظم في تور ، فقد احتار منه أسر
المخطوطات وأرسلها الى مدينة ، وردو ، ومنها اتخذت طريقها
الى اسبانيا وقد حدث ان ثرت ثائرتة واستشاط غصبا فحطم
حجرات التفطير أمام الرهبان المذعورين ولكنه لم يتناول على
أى واحد منهم أو منه سوء .

وعندما وصل عند الرحمن مدينة تور ، كانت الحقائق
المؤلمة في انتظاره فاصطدم بها واستيقظ من حلمه الرهيب
وتحطمت آماله .

فعد تور « احتلف قواد جيش عند الرحمن بسبب توزيع
الاسلاب وبغامل المناهات الشخصية وبدافع من طيبتهم
الشبهة وتارعوا فيما بينهم . لقد أرادوا ان يقتطعوا لأنفسهم
الاقطاعات في البلاد والمدن التي افتتحوها اد أنهم قد قدروا
أن قوات الاعداء على الرغم من وفرتها لم تفلح في معاومتهم
طويلا ولذلك كان في استطاعتهم أن يعدوا انفسهم ظافرين

وبالتالى كان لهم الحق . وهم غالون . فى حصنهم من الغنيمة
تلك مع الأسف هى القصة القديمة التى كانت تتحدد بتحدد العزوات
التنافس بين الرعما . كانت تلك الاعتبارات الشخصية كثيرة
ووحيدة العاقبة عند العرب الذين كانوا — بدافع من استسلامهم
للقدر — يضعون مصالحهم واعتباراتهم الشخصية فوق
مصلحة الجماعة وفوق تضامهم الكلى . ولقد طالما كان ذلك
أساسا لخرايبهم

لقد كانوا يحتدمون عند مناقشتهم حتى ليصل الغضب فيهم
الى القمة ويدفعهم صد بعضهم فيتنازعون ولا تستقر الحال بينهم
الا والعاقبة وحيدة . وساءت الحال شيئا فشيئا وتكررت تلك
الحوادث المؤلمة بينهم وعميت أنصار البعض منهم حتى دست الهزيمة
فى صفوفهم وهكذا كان الظافرون يتناوشون حول
غنيمة لم يتم اقتناؤها كان للمعاوين حظ وافر فى لم شعشهم وصم
صفوفهم واعداد انتقامهم بجمع قواتهم وهذا ما حدث فعلا

واتسع الوقت أمام اود ، دوق غسقونيا والاكيتانيين
ليضموا قواتهم الى الفرنجة تحت قيادة شارل مار تى بجل . بيسان
دير يستل ، فقد كان وحده بين الفرنجة ذا بأس وشهامة
ووحده أيضا بين امراء المسيحيين الذين تملكهم الرعب عقب غزو

عبد الرحمن . من حافظ على ثباته ورباطه حاشه ليدافع عن بلاده
وشعبه .

ففي عام ٧٣٢ عندما التقى عبد الرحمن بجيش شارل مارتل
وحلفائه على ضفاف نهر « بوافر » بين « تور » و « بواتيه » لم يكن
لديه ما يواجه به غير جيش ضعيف ممكك الاوصال تؤيده
فصائل بدية من الفرسان وهي الفصائل التي دافعت عن قائد
حتى اللحظة الاخيرة وانحذلت قواها معه واهارت الى جانه .
مر اليوم الاول على معركة « بواتيه » الدامية الى تعد من
أشهر معارك التاريخ دون أن يسفر عن أية نتيجة حاسمة . على
أن القتال المروع استؤنف رهيبا مع فجر اليوم وابتسم الحظ فيه
لعبد الرحمن . ولكن ما أن مال العسق حتى حانه ذلك الخط
اذ أقبل « نود » دى عسقويا الى هرم في « بوردو » وتمكن في
آخر لحظه وبحركة التماوى بدية نذل على الدهاء والذكاء من انقاذ
شارل مارتل من هزيمة مؤكدة . وهكذا سقط عبد الرحمن
حائر القوى وقد نالت منه السيوف مقتلا فقضى نحبه وتلاشت
معه آماله وأحلامه العظام .

وقد قال المؤرخ الفرنسى « هيوارت » ان عبد الرحمن
سقط متخما بجراح الحراب وهو يحاول ان يجمع شمل جنوده

وقد تركوا ميدان القتال وأسرعوا للدفاع عن معسكرهم
الذي هاجمه الاسكتلنديون . ولكن حركة الانتعاف التي ابتدئها
أود ، دوق عسقوبيا وموت زعيمهم عبد الرحمن هي التي حلت
العرب وأرغمتهم على الانسحاب بسرعة (أكتوبر ٧٣٢)
تصمحو الان أحد كتب التاريخ وطالعوه فانه قد يذكر
لكم أن شارل مارتل سحق العرب بقيادة عبد الرام عام ٧٣٢
وانقذ الحضارة والغرب من الفتح الاسلامي ...

اما ان شارل مارتل قد أتى فرنسا من الفتح العربي فهذا
صحيح . واما أنه انقذ العرب وحضارته من الفتح الاسلامي فليس
لهذا لقول بصيب من الصحة . اذ لم تكن للعرب حضارة حتى
يمكن ايجادها . فقد أجمع مؤرخو الغرب على الاعتراف بذلك وهم
بميصوب يدكر الهمجية التي كانت تسود اوروبا الى ما بعد
القرن الثامن . فأي هي ادن تلك الحضارة التي يقال أن معركة
" بواتيه " قد ابتدئها . واستطرد مؤرخو اوروبا وأشدوا
بصراحتهم المعهودة يدكر حضارة العرب المدهشة وأتوا على
وصف ثقافتهم المتألفة ثم اعترفوا بان الغربيين قد تفاخروا
فيما بعد على مآهل العرب واستموا منها الأساليب اللارمة لانشاء
حضارتهم .

أما قوة العرب لهائلة فلم تكن لتتأثر بمعركة صروس أو
هزيمة شنعاء كهزيمة نواتية ، مهما كانت العوامل أو
الوسائل أو الظروف المحيولة التي أدت الى انتصار الفرنجة فيها .
فقد حاول شارل مارتل أن يسترد مدينة افينيون ويبرزها
من قصة العرب ولكنه فشل تحت أسوارها عام ٧٢٧ . وفي عام
٧٥٥ أحصم العرب بلاد الباسك واستردوا باميلون واجتاحوا
الباوار . ولولا الكارثة التي حلت بالطل المعوار ، رولان ،
في وادي ، روسوفو ، في عهد شارلمان العظيم لما شعر أحد
بوجودهم في تلك البلاد ولا بالخطر الذي يهددوهم به . فسوف
ينكثرون في ايطاليا (صقلية) زماما طويلا كما أنهم سيسيطرون
على اسبانيا بقاء ثلاثة قرون . فبعد انهيار الامويين وبجي العباسيين
نجا شاب فتي من مذبحة الممت بأسرته وهر الى اسبانيا فريدا وحيدا
لا صديق يرافقه ولا معين يعضده وفي رأسه فكرة تختمر وتتازعه
وهي فكرة تأسيس امبراطورية في تلك المناطق النائية وقد تم
له ما تمى مما حمل الحبيبة المصور العباسي الذي انزع هذا الشاب
اجمل بمتنكاته وأروعهما على القول في ذهول واعجاب ، حقا
ان هذا الصفر من سلالة فريش . لقد احدث كلمة اسبانيا ببجي .
عد الرحمن وحضن لأوامره عدد كبير من الامراء المسيحيين

وعاد الخطر من جديد يهدد كيان الغرب وملوكه .

أما السبب في انهيار قوة العرب التي لم تدق ساعتها الا بعد زمن طويل فهو عدم ائتلاف طبائعهم وانشقاقهم .

فمن ذا الذي سوف يقفد أوروبا والمسيحية من سيطرة العرب العظيمة وهو ذم الواسع ؟ هناك رجل واحد تمكن بكائه الخارق وارادته الحديدية أن يبعد أوروبا ولكن بعد مصي حسماته عام من ذلك التاريخ أى بعد انقضاء ثلثمائة وخمسين عاما على معركة هواتيه ، الشهيرة وهذا الرجل هو : اوددى شاتيون . .

ففى الوقت الذى خفف فيه لامويون مكابهم للعباسيين فى الشرق وتركوا لهم امبراطورية واسعة وعنا ثقيلًا لحكمها وبينا تعاقد عشرون أميرًا عباسيا على عرش بغداد - التى اصححت عاصمتهم - دون أن يعودوا على العام الا بمحدد أدنى وعسى راھر لا ينسى ولكن دون ان يعودوا عليه بأى فتح حديد وبينا كان الفاطميون فى مصر يعرقون فى محار دامية من جرائمهم واحطائهم . فى ذات الوقت كان عرب اسبانيا يضيئون باوارهم أوروبا المطربة التى احدثت تنعش وتمض تحت تأثير احتكاكها بهم وتسترد قواها وتصفل سيوفها وتستعد تحت جميع الطلـام ولكن العرب كان ينتظر شيئا ويرقب مثلاً أعلى فهذا الشيء .

وذلك المثل الاعلى ستجده كنيسته له .

ففى اواخر القرن العشر كانت الكيسة تدولنا بمشاة دولة
مستقلة موصدة لاركان تعمل لخير الجميع ومصالحهم وتقوم
بدور حقه الاتصال بين افراد الشعب وبين سادة العالم الاوروى
وملوكه وأصحاب السلطان الديوى فيه .

وفى نحو عام ١٠٥٠ كان "أوددى شاتيون" راهبا قويا
من رهبان دير كلونى لم تتجاوز العشرين من عمره وقد رأى فى
ذلك الوقت صديقه "إبل دى روى" . بصم الى فرنسا الفرنسيين
ويتحد منهم طريق البريبه لاجلاء العرب عن اراغون ولكنه لم
يعد . فعندما أصبح "أوددى شاتيون" عام ١٠٨٩ السابا
أوربانوس الثانى جرد حملة فرنسية على طرق اسبانيا ولكن تلك الحملة
لم تعد عليه الا بالنتائج المحزنة التى أسمرت عنها سلسلة انكساراتها
فدنت له عندئذ حالة العرب المستهدوف لخطر العرب الدائم دون
مخرج من الهوة السحيقة التى سقط فيها . اذ ذاك بدأت فكرة
الحروب الصليبية ترسخ فى ذهن "أوددى شاتيون" وأخذت
تنمو فى عقله ويحتمر عنده رويدا رويدا سواء أكان فى صومعته
فى كلونى أم فى مناه فى ساليرن أم فى قصره فى لاتران ، عندما القى
هذا الملك العظيم فى اواخر القرن الحادى عشر طره مدعورا على

العالم وأخذ يتطوف بصره الحاد في أفقه العبد

وفي يوم ما عاد بعض الحجاج من الاراضي المقدسة يرافقهم
راهب مجذوب تم نظراته عن الحبل وهو بطرس الناسك وحليق
في أب اعترف بأن مطهر هذا الراهب المجذوب كان يشبه تمام
الشبه مطهر أولئك الدراويش المولوية الذين كانوا في عصر
مضى يحويون الحياء اسطبول وهم يدعون الى الجهاد
وينادون به .

عاد هذا الشخص الغريب الاطوار من الاراضي المقدسة
وأخذ يروي قصص مغامرات خيالية ويخترق الاوصاف
والاكاذيب عن السراية راعما أنهم كانوا يتمكنون حرمة
القبر المقدس وبأكلون اللحوم الشربة ويشربون دماء
الاطفال المسيحيين في ولائمهم ، كما كان يتحدث عن المسيحيين
الذين يذيقهم السراية انواع العذاب ويومنون تحت طبعهم
واستعدادهم . وبشر هذا الناسك في جميع مدن فرنسا والمابا ووعظ
في جميع الاسواق والبيادر العامة وفي قصور الامراء والاكواح
الفقراء حتى ألهم الجماهير عواطفه وخطبه الحماسية فمالت الى
تصديق رواياته الخرافية وتأثرت بأقواله عندما حدثهم عن اعتداء
السراية على الاماكن المقدسة فادوا بالتأثر . ولئن كان البابا

وورد أنوس لم يصدق به دى. الله. إلا أنه وجد دعايته ماهرة وآل به
الأمر إلى استخدام بطرس الراهب في سبيل تحقيق أغراضه ولا
سما أنت الوقت كان مؤاتيا

أما العرب لدى لم نزل ذكرى الهراثم المبررة لى أنزلها به
العرب عاقبة في ذممه ونحز في أعماق قلبه فقد رأى الفرصة ساعة
لبنار نفسه. فأصت بكليته إلى أهوال السك الذي لم يكتف
بوصف القضايع التي يرتكها السراسة حسب بل كان يصف الشرق
القوى وما يحويه من العرائب والسكر والحيرات فيثير شعور
جمهور معدم لا نمت شروى بغير ولا ما يرد به عن نفسه
غائلة الجوع.

لقد كانت حالة أوروبا عامة مما برثي لها ولا سيما فرنسا حيث
كانت المجاعة تفثت بالاهلى فتكا ذريعا ففى عهد « هوج كايت »
« وروبير التهى » حلت المجاعة بفرنسا كلها بعد أن نفدت جميع
مواردها. وقد ذكر لنا المؤرخ « فونك برتانو » عدد المجاعات
التي وقعت في تلك الحقبة من التاريخ وهي : « مجاعة في عام ٩٨٧
وعام ٩٨٩ ومجاعات أخرى من عام ٩٩٠ إلى ٩٩٤ ومن ١٠٠٣
إلى ١٠٠٨ ومن ١٠١٠ إلى ١٠١٤ ومن ١٠٢٧ إلى ١٠٢٩
وقد بلغ عدد المجاعات في فترات ٧٣ عاما من القرن الحادى

عشر ٤٣ مجاعة (١)

وقد وصف المؤرخ ، رافول دى جلار ، معارات مؤثرة
المجاعة التي حلت عام ١٠٣١ فقال : . ان الدس أحدوا
يلتهمون الخث واشياء أخرى هتزل له الاسان اشمزارا لذكرها
وداك بعد أن أجهروا على جميع الحيوانات ومختلف انواع الطيور
وكاب البعص يأكلون حدوع الاشجار والاعشاب ليدفعوا
بها عن أنفسهم عائلة لموت وقد أصححت اللحوم البشرية
طعاما مستطابا يتارعه فيما بينهم . وقد دفعت المجاعة بعض
الأفراد الى التعذى ، لخت التي كانوا يستخرجوها من القور .
وهكذا ألقت عارات بطرس لاسك الى كان يصف بها
ما فى الشرق من ندح وحيرات جماهير مستمعيه وأثارت فى قلوبهم
شعور الحقد والحسد

وهكذا أصبح مبدأ الحروب الصليبية نفسه — اذا أردنا
أن نجد له فى الاصل سدا دينيا — أمرا قابلا للمناقشة والمعارضة .
ولكن لا تصوروا الحطة واحدة أن حطب بطرس لاسك
الفياسة هي التي أثرت أو حملت رحلا رفيعا وسياسيا بارعا لبفا
كالبا أوربانوس الثانى على ايجاد أى قرار . كلا . . .

(١) تاريخ بطرس ، وصلى هو — بطرس

فأورمانوس الثاني لا يأخذ هذيان نسك أو أضغاث
أحلامه إنما هو يريد حرجا ووقائع فالواقع ستأتي بصورة
أنباء مزعجة من الشرق .

فقد حرب السلاحقة الأتراك الذين يوهنا بوجودهم بلاد
أرمينيا المسيحية القديمة وسلحوها عن الإمبراطورية البيزنطية
وفضلا عن ذلك بلغ مسامع البابا بأحر مزعج وهو نكازة
«مالا زجرد» ولم بشر تاريخ العرب إلى هزيمة «مالا زجرد» إلا
إشارة بسيطة مع العلم بأنها تعادل في أهميتها حملة أصعاف هزيمة
«بواتيه» لما أسفرت عنه من النتائج الوخيمة .

وإليك ما قاله المؤرخ حروسيه في هذا الصدد : « في ذلك
العهد اعتلى عرش بزنطة جدي شط هو الإمبراطور رومانوس
ديوبيسيوس . وقد أراد هذا الإمبراطور في ربيع عام ١٠٧١ أن
يحرق أرمينيا من الأتراك فشد جيشا قوامه مائة ألف رجل بينهم
كثير من الجنود المرتزقة النورماندين . فسار لملاقاته زعيم
الأتراك «البارسلان» ثاني سلاطين السلاحقة واشتد الحيشان
بالقرب من «مالا زجرد» شمال بحيره «فان» في التاسع عشر
من شهر أغسطس لعام ١٠٧١ . وفي هذا اليوم الحاسم من أيام
التاريخ رأى رومانوس أن قواده يتحلون عنه ويخونونه

فصل وحده مع شزيمة من 'رجال المحصين' ودفع عن نفسه دوع
الاطال حتى 'تبحر باخراج وقتل حواده تحسه' و'سر وسيق الى
'الارسلان' الذي رحب به كل 'الترحيب' و'باع في حسن معامته
واكرامه'. وكان البرطيون هم الذين قدوا عيسىه على 'شر
اطلاق سراحه بدافع الصعوبة والحمد السبائي'

وبعد انقضاء ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ عدت السلاخفة
وهزموا البيزنطيين من جديد في 'نيقوه' ووضعوا 'مس مملكة
في آسيا الصغرى ثم اسرعوا مدسه القدس من قصه اعرب في مصر
عام ١٠٧١ كما اسرعوا 'اطاسكيه' من البرطيين عام ١٠٨٥
وقد نشر ملك شاه ثالث سلاطين السلاخفة لوية امراضوريته
من 'بحاري حتى ايطاكبه' وفي عام ١٠٨٧ عمن سيفه في ميه
البحر المتوسط وكانت اشارته هذه رمر عجيا.

وقد توالى هذه الأحداث السريعة في عهد البابا اورسوس
الثاني وكان لها وقع عظيم في الغرب كله
وبفضل ما كان يتمتع به البابا اورسوس الثاني من دكا.
مهرط و'بطر' لقب 'تحيل' أمامه ما سوف يحدث بعد اربعائة عام:
وهو دخول الارك الى بيزنطة دخول الظفر الفاتح.

فيه شاهد فداسته اسير الامراطورية البيزنطية بعد معركة
(مالار حرد) وحمودها في وجه الاتراك الذين اسرعوا مها
آسيا الصغرى بأسرها دون ان تحرك ساكنا ، ولما رأى كذلك
في اوروبا ما عرب اساييا يهرمون مرة أخرى امراء اراغون وليون
ويهددون باجتياح فرنسا من جديد استقر رأيه ووضع اسس
سياسته التي سيسير عليها ، وانه لكي يقدر الغرب من الموت
المحقق وخطر الاسلام كان يقتضى على الامم الأوروبية ان
تتدخل في شؤون الشرق وتحمل الحرب الى ابوابه .

ففي الايام الأولى من شهر يونيو عام ١٠٩٥ اتفق
اورباوس الثاني من ايطاليا الى فرنسا موطنه ، وفي السابع
والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٠٩٥ وهو اليوم العاشر من
ايام مجمع كليرمون المقدس ، دعا البابا رسميا المسيحية بأسرها الى
حمل السلاح لانقاذ كيان اوروبا .

وهكذا نشأت الحروب الصليبية تحت صيحة — هكذا
يريد الله .

وقد قاد الحملة الصليبية الأولى المعروفة ، بحملة الفصراء ،
بطرس الناسك في أوائل عام ١٠٩٦ أي ستة قبل ، حملة الامراء ،
وقدر المؤرخ شالدون في كتابه عن تاريخ الحملة الصليبية الأولى

عدد احوود الدين اشر كوا فيها خمسة عشر ألف رجل - حسود
جميعا من شرق فرنسا ولورين و لاني -

وقال المورخ جيبون الانكليزي (1) ان اللصوص الذين
كانوا يتعرب بطرس الناسك لمسوا الا وحوشا مفترسة مجردة
عن كل عقل (2)

وقد سار بطرس للناسك الذي لقته « آب كومين » باسم
« بطرس ذي العناء » (3) ومعه معمر آخر هو « حوبييه سارافوار »
وقد اصم اليهما مجذوب « فاري » يدعى « حواتك » على رأس
طواير عظيمه من الرجل المعدم من ذوى الملابس المهلهله الذين
ألقط فيهم احوار والشفاء تحت انواع العرائر وأسوتها واحتراروا
هم أوروبا عند ذاق نهر الدانوب خلال سهول هنغاريا الموحشه
حيث فتك ملك الهنغاريين « كولوبان » بعدد كبير من هؤلاء التعساء
وطاردهم بعيد ما شفعه ولا رحمة من بلدة الى أخرى حتى أعياهم
التعب وأهلك قواهم فها هموا على وجوههم يهرون نارة من
الهنغاريين والصفلة ويعدومون طورا الموت والحدديد حتى
احتراروا بهر السيف وخطوا رحلهم في أراضي برصة

1 - Gibbon : Decline & fall of the Roman Empire

2 - Alexiade : Livre X

على أن . الحكيس كومن . امبراطور برطيه في ذاك
العهد تدي سحرته ~~فكرة~~ الحروب الصليبية نادی . ذی بدء . —
لانه كان ير حوان بجدي في عصرها حقاء أشداء أو مرؤوسين
أوفيه . يستعين بهم على استرداد المدن التي ابتزها منه السلاجقة
في آسيا الصغرى — لم يلبث أن حانت آماله أمام هذه العصابات
من الفقراء المشردين فهو لم يكذبى . تلك الطغمة المؤلفه
من الهمج . — على حد تعبير كريمته . آن كومنين . التي صممت
كتابها . الكساد . يانات وافية عن الحرب الصليبية الاولى . —
تطأ بأقدامها القدرة أراضي بلاده وتسير حتى أبواب القسطنطينية
مقر ملكه . حتى أدرك ثاقب بصيرته النتائج الوحيدة التي قد نحل
بولاياته وعاصمته من حراء مرور هذه العصابات العديدة غير
الطامية . خطر عليها دخول المدينة ولم يقل بموبها الا مكرها
ثم سعى سعياً حثيثاً الى توجيه هذا السيل من الهمج نحو آسيا
الصغرى بأسرع ما يمكن .

وفي فصل الصيف من عام ١٠٩٦ قدم بربطة احد العطاء . هو :
. شقيق فيليب الاول ملك فرنسا . الامير الرقيق الشأن ذو الصولة
والجاء . السيد هوج كوت دي فراندوا وكوت دي درو وسيد
نيسل وكليرامو وفاندوي . على رأس كتبة من خيرة فرسان

فردس شحرير الاراضى المقدسة من الكفار

وقد استقبل الامراء صور الكيس ه' من فردسا هـ
استفلا عظميا رائعا وكان هو الوحيد الذى دس له بالافمه في
المصطفيه . على أن الامير الفرسى الصف هـ يمكن ليتوقع -
بعد كل مظاهر الود والشرف الى أحيط بها - أن يراف مرافه
الأسرى أو يكره على الركوع أمام الامراء صور ليحلف بين يديه
بمين الولاء والاخلاص الذى يقضى له معادرة بلاطه وولايته
والذهاب الى الشرق لمفاته لكفار .

ولم تلت لفضطمة ان أصحت محظ رحل جمع الصليبيين
البارحين الى الشرق

وفي فصل الحريف من السنة ١٠٩٦ (وصال الى
ولايات الامراء طور شحص آحر عظيم لشان هو (حودفروا
دى بويون) دوق دى لورين . بصره جيش قوامه ١٠ آلاف
فارس من المنديين والالمان واهالى اللورين وأكثر من ٦٠
الف جندي من المشاة . وقد قدر لهذا الجيش - الذى يربو
عدد رحله على جيش الكونت دى فرانسوا وسائر الخيوش
الاخري بما فيها جيوش بويوس وديسكريد وتاربت التى اندفع

(١) تاريخ ليم كس

سببها فيما بعد تعريض جيوش الحملة الصليبية الاولى — أن يذهب
دوراً هاما في فلسطين إذ رفع جوددوروا وسلاته على عرش
القدس

وقد دخل جوددوروا دي نوبون اراضي بربطة بطريق هغريا
وسار الى مدينة (اندريو بوليس) واطلق يد السلب فيها ثم الى
مدينة سيلبري فاضرم النار فيها انتقاما لما كان يطهره البرنطيون
من سوء النية في نوبين حينه .

فما علم الكسيس بما حل بمدينة سيلبري أرسل الى جوددوروا
دي نوبون مدوين فرسيين كما في خدمته هما (راوول بدلين)
و (روجيه داحوير) ليظننا اليه أن يكف عن أعمال السلب
والنهب (١) فاذعن الدوق دي لورين وعادر مدينه سيلبري بعد
أن حاربها وأقام معسكره أمام أسوار القسطنطينية .

لقد ركبهم الكسيس الاول خارج أبواب عاصمته بعيداً
عنه كما لو كانوا من غمة الفلاحين أو طعمة من الدور
الرحالة الذين لا يليق بهم أن يتخطوا أبواب المدينة الشهيرة .
فدارت عدد أبواب المدينة مباحثات لا نهاية لها وهي مباحثات لم
تكن في الواقع إلا صرر من صروب اللعاب والاحتيل تدرع

به لظروف . وظل حودفروا عند ابواب المدينة خافقاً مندماً يأتي
الانصياح لدعوة الكسيس الذي أتى من حابه أن يموت .
وهدد حودفروا الكسيس بمهاجمته واشعال النار في المدينة
فاحابه الكسيس على هذا التهديد بأن حرس بده عنه وصرف
عن مده بالمعونة المادية التي وافق على تزويده بها وإن كانت
قليلة . فأخذ حودفروا في نهب ما يحيط بالمدينة غير هيات ولا
وحمل

تصور حفظك الله ما ينجم عن وجود سبعين ألف رجل عراة
حماه من تهديد ووعيد خصوصاً إذا أصيب إلى ما كانوا عنه من
فائه وجوع وما يساور مخيلتهم من وساوس وافكار سيئة وهم
على قات فوسين أو أدنى من باب المدينة . وانك لو تصورت
ذلك لعجبت من نعت الكسيس وصلاية رأيه وشجاعته في
استمراره على عدم إحانة حودفروا إلى مطاله حتى ينس ويمعه
عن مده مما كان يطلبه من معونة بل عن تعضيد رحاله له في
جميع الاعمال الحربية في الشرق . بل ما هو أشد وأدهى عن
مده بالاسطول البيزنطي وهو الوسيلة الوحيدة للموين حشوش
الصليبيين بعد أن نزلوا في فلسطين

فاذا كان الكسيس لم يفقد أداً شعوره من حودفروا كان

على وشك أن يفقده .

فما الحيلة إذن ؟ لم يأت جودفروا وفرسانه من أقصى
المعمورة لينقلوا امبراطور بزنطة ولكن جاءوا ليحسبوا
بالمسيحيين : ولما كان الامر اضور غير مسلم فلم يكن في استطاعة
الصلبيين على لرغم من جميع تلك المعاكسات ان يشهروا السيف
في وجهه ما دام مسيحيا وما داموا هم داخل ولاياته وتحت رحمته
دور أن يشيروا على أنفسهم فضيحة كبرى في جميع أنحاء
المسيحية .

تخفف جودفروا من علوانه وهذا من حدة طاعه وطلب
ان يفاوض الامبراطور

كان الكسيس سياسيا حادقا حتى يحتقر القوة الى يستطيع
الصلبيون أن يصنعوها تحت امرته فرأى ان يستهز الفرصة
ليسه من ترك ولايات الامبراطورية القديمة . وانه لكي يصل
الى ذلك كان لا بد له ان يقنع الصليبيين بأن يحاربوا الحسانه . وفي
سبيل الوصول الى تلك الغاية كان عليه ان يتدر أحد أمرين : اما
اكتساب الصليبيين المال واما أن يجعل منهم جيشاً مأجورا
يكون يمسهم بالطاعة للامبراطور خير ضمان لا خلاصهم له (١) .

ليس هناك شك في أن فكرة حلف يمين الصلعة لأمراء طور
اليوناني الأرثوذكسي ومحاربة الترك لصالحه كانت تصطبغ بأية
زعما الحملة الصليبية الأولى وكبرياتهم .

وهكذا عندما أرسل الأمراء طور الكيس إلى حدود ورا
دي بويون رسوله الكونت دي ورايدوا للتوسط في الصلح فإن
ذلك لم يحدد نهعا ولم يعبر من وضع الأمور لآب هذا الكونت
كأن هو أيضا قد ذاق بدوره متاعب الأمراء طور ومعاكساته
وطالما سمع منه رنة أحاماته وقوله . لا معونة ولا أسطول بدون
يمين الطاعة .

كان الدوق دي لورس عظيم الألفة قسابلين عودا فاحتم
لتلك لاهاته التي تسنرها مثل هذه الاقتراحات وفرض أن يفاوض
وعاد إلى تخريب صواحي المدينة من حديد واحتشد الصليبيون
أمام باب سان رومان ، ليفتحوا بفصيلة من حدود الترك
المرتزقة الذين يحاربون لحساب البيزنطيين . فصدر الأمر إلى
رماة السال البيزنطيين بأن يسددوا ساهم أي الصليبيين واشتد
الفرقان وحمل وطيس القتال واد ذلك أصدر الأمراء طور أمره
إلى التريس بيسيفوروس برينبوس أن يهاجم الصليبيين ويحمل
عليهم .

فهم حمير يوس عن راس مرزقة من لور ماسين وعينه
الحرس الامبراطوري فرسان حودفروا بشدة وردهم الى حياهم
على مدى بضعة فراسخ من المدينة
اذ ذاك سلم حودفروا دي يونون وصرح لارادة الكيس
وفيل مقترحا

اصطحب حودفروا ثلاثمائة من فرسانه على حيولهم
المطهرة وسار يحيط به سياحه وحدهم وقسيسه نحو المدينة حتى اذا
ما أصبح على فرسخ منها قننته حاشية من الطارقة التزطيين
الرومانيين فسار الدوق دي لورين في وسطها محذولا والحقه مل.
فؤاده واختار باب سان رومان ، وفتح المدينة حتى وصل الى
قصر بلاشيرن ، ليقدّم خضوعه لالكيس .

وحدث حودفروا دي لورين وأمير الامبراطورية الرومانية
المعدسة ما الامبراطور ادى كان يحس على عرش مرتفع وحف
تمين الطاعة . وتعدنا ان يكون رحل الامبراطور كما قطع على
نفسه ان ميد اليه جميع البلاد والاقليم الى كانت تابعة
للامبراطورية الاوقل الكيس الدوق ولقه بانه ، وقبل على
الدوق لورين السلام . !

وما أن حلف فؤاد حبش الصليبيين بين الضاعة لدى
 ورض عليهم حتى عمرهم الكسيس بجميع انواع الاعمال والعطايا
 أما اداء بين الطاعة فكان مدعاة لافامه كثير من الحفلات الكبيرة
 على أن الصليبيين عوا قبل معادرة القسطنطينية للتوجه
 الى آسيا الوسطى ، ساء الميراث الى كانوا أوول اليه كما عى
 البرارة ناصرهم الد فيها (١) وها قل على الامبراطور السلام .
 وفر جو دوا دي بويون ورجاله الصليبيون نحو مدينة القدس .
 لقد عادوا دعوا ، الى البرطيس كما كيف أعادوها وفي
 انه حانة بعدوا بعدهم نحو الكسيس فهذا لا يغيب .
 كان دث لهم وحو حروب وطبيعة دامية بين الشرق والغرب
 وهذه الاسطورة وان كانت عظيمة وغير انسانية فيها ستمر بأجيال
 تعقبها أجيال .

ثقوا بأنى لست مارة ولا دعية فأطول على حقوقي العير
 فأفص عليكم ناربع الصليبيين .

والكى استطع فى كثير من التواضع أن أفص عليكم
 حكاية عصاة لصلاح الدين ، هى عصاة طلت شهيرة فى أساطير
 الشرق لأن عواف تلك العصاة ستكون وحدها تاريخنا كله

1) Alexiade

ك... لا ك...

المحدث التاريخي السادس

غضبة صلاح الدين

ملكه القدس اللاتينية - الفرسان المضيفون
والهيكليون *Hospitalliers & Templars* -
ريودى شاتيون ، أمير الكرك ، حملته
على مكة وغضبة صلاح الدين - الملك
بودوان الرابع الاجنم - غي دي
لوسينيان ، و . سيليا ، وتويعهما ملكين
على بيت المقدس - ريموند الثالث أمير
طرابلس وجرائم ، دي شاتيون - اتحاد
الفرنج - الاتحاد الاسلامي - موقعة
حطين - اعدام ، دي شاتيون - استيلاء
صلاح الدين على القدس - بعد الحرب
الصليبية الثالثة - وفاة صلاح الدين .

كانت فلسطين في أوائل القرن الثاني عشر فريسة سائغة تمزقها
الحروب الدينية والمنازعات السياسية .

وقد حدث عثم الخطة الصديقه الاولى التي قاده . حودقروا
دي بوبون (١٠٩٩ - ١١٢٤) وأسفرت عن تأسيس
المملكة اللاتينية في بيت المقدس — أن تألفت حول مملكة
الفرنج في الشرق اقطاعيت وامارات اشعب سدهب من مختلف
شعوب العرب ونع أولئك السادة في ادارة شؤون ممتلكاتهم
الحديثة في الشرق نفس نظام الاقطاعيات الذي كانوا يتبعونه في
بلادهم بأوروبا وارتكوا نفس الاخطاء التي ضلوا ارتكبوها
هناك . وهكذا التفت هذه العناصر المتسافرة المؤلفة من
فرسبين ولومباردين وألمان وإيطاليين حول هذا العرش المتداعي
المضطرب . وسلا من أن تعصده بقوتها رادته اضطرابا فوق
اضطرابه بمنافساتها ومنازعاتها التي لا نهاية لها .

لقد كانت الاراضي اللاتينية الممتدة بمحذاة الساحل الفلسطيني
بين نهر الفرات ومصر تتمتع بشيء من الطمأنينة والسلام بفضل
ما كانت تحتوي عليه من مراكر حربية مبيعة وبفضل ما كان
يربطها بالعرب من علاقات سياسية تجارية بواسطة سفن الكرسي
البابوي وأساقفة السوفية . وكانت الامارات الواقعة في الجهة
العربية أنعم من أن تعم بأفئ عوامل الأمن والطمأنينة . إذ أن
الامبراطورية البيزنطية التي كان لا يروقها توسع المملكة

اللاتية في الشرق . كانت ترقمها عن كشب وتطر اليها نظرة
ملؤها الخعد والصعينة . هذا فصلا عما لافته تلك الامارات من
صروب المعاكسات وما حاق بها من محن وارزاء على أيدي
أمراء حلب وحماه ودمشق الذين كانوا لا يترددون في فرض
الجزية عليها

أما الامارات اللاتية في الجيوب فقد لعبت بعض التسامح
من جانب مصر جارتها الى أدت لها باحتلال مباء عايله على
البحر الأحمر والاشراف على الاديرة في سيناء . على أن هذا
التسامح لم يمنع مصر من شن العيارات على تلك الامارات بين
الهيبة والهيبة واثارة المتاعب واقامة لعراقيل في سبلها . ولم يكن
على هذه الامارات المتثرة في أرض الشام وأرض يهوذا أن
تدافع عن نفسها ضد الأمر المسلمين وحسب . بل كان عليها ان
عقب في وجه سياسة بيزنطة المصنوية على الخدبة والدهاء . كما
كان عليها ان تدافع عن نفسها من نفسها فقد كانت الممارعات
والمساغات تشتت باستمرار بين أمرائها كما هي الحال بين الأمراء
المسلمين قبل أن يجمع صلاح الدين شملهم ويوحد كلمتهم
ويؤلف منهم الاتحاد الإسلامي الذي لم يلبث أن قلب أوضاع
الأمر ظهرها على عقب .

ولا شك في أن هناك شدة العناصر حضوره في هذا
 الخليط من الشعوب والمحيط من الدساتير كانت الطوائف
 العسكرية الثلاث^(١) وهي طوائف الفرسان المصياوين والهيكلين
 والتوتونيين الذين كانت مارعاتهم وأحقادهم سدا في إثارة كثير
 من المشاغل الداخلية في المملكة. حقا أن المملكة اللامية
 كانت مديرة لهذه الطوائف بما تقدمه لها من تعاضيد عسكرية
 قوى ولحكاها كانت تدين لهم في الوقت نفسه في كثير الحروب
 التي كانت تنشب بين أمرائها إذ كان هؤلاء الفرسان الرهسان
 يباصرون بعضهم ترة ويحاصمون البعض الآخر طورا
 وبدافعوب عن تاح القدس حيا ويقانونه حيا آخر.

أما شدة هذه الطوائف العسكرية شعبا فكانت ضائعه الفرسان
 المضياوين، لقد قوم المصيافون في القدس بأذن حاص من الخليفة
 العزيز الفاطمي بحجة اقيام بأعمال البر والاحسان نحو الحجاج

(١)

- في ١١١٣ حو، برنس وجردي وي، هؤلاء برهن في فرنسا
 ب - في ١١١٨ أس هاج من أس ضائعه هككت في عدن وندكو فصول
 من كوتو، ويا من هون في عدن حرب وآخر من سجون
 ج - قوم مصر في عدن من محي، محسن وذل حسن من ضائعه هككت
 وذل للقدم بعد، بر وأحسن جو حجاج وبنوح من عدن حرس مدع شفق وذل
 حروف عدن سجن لأمه في حجة في مدفع (بريت مصر من عدن) في
 أما لاب ه و صفة ٢٣٧

واحى يقول منهم بشروهم بما يستوجب لهم كل مدح وثناء .
ولم يكن جيران دى بروفانس الذى أنشأت تلك المؤسسة
لمساعدة المحررى وقت الحرب ومعالجة المرضى وقت السلم ولا
الخليفة العزيز المتسامح الذى تمتع أولئك الرهائن بحمايته وعطاياه
ليتوفى ما يحته لها المستقل فى طبياته وما ستأنى به الظروف من
تعدلات وطرورات بالنسبة للأول الذى كانت فكرته الأساسية
فائمه على البراهمة والرحمة فاسى . استعملها فيما بعد والنسبة للشانى
لأنه ساعد على تدوير الخيانات على الرغم منه فى وسط ولاياته
على أن الأمور سارت سيرها الطبيعى الى أن أتت الحروب
أصلدة وحما بعد وحولت أولئك الرهائن المسلمين الى حمود
مقاتلين وطعمة من اللصوص وقطاعى الطرق .

ومد اسم المصيفون فى مرؤله أعمالهم الخيرية ولكنهم
قد كانوا بشروهم لأراض بزهة بخته . لقد كانوا يقومون
بها بقوة السلاح فادى أراضهم الى استنهار شعور الجميع من
صليبيين وسراسه

وقد أدى المصيفون حمات حلية للدراسة بأثارهم القلائل
والاصطادات دون أن يخونوا لذلك قضية الفرنج . فقد كانوا
يحددون لعملهم ثمنا وكثيرا ما كانوا يتحاورون هذا الثمن .

نما تمتد إليه أيديهم ويسلمونه من القوف العربية أثريّة. كان السطو على
قوافل السراسة من الأمور الطبيعيّة في طرهم باعتسار ان السراسة
من الأعداء. ولكهم عندما كانوا يسلمون القوافل البرطيّة
أو بأسروها بطريق الخطأ — وهو خطأ طالما رأيت برطة أنّه
يتكرر كثيراً — فقد كان من شأن هذه الاعتداءات ان تطلق
امبراطور برطة الذي كان في الواقع عدواً أكثر منه صدقاً
وحليفاً — وأن تساعد على تغيير صور العلاقات السياسيّة وزيادة
توترها بين الامبراطوريّة البرطيّة والمملكة اللانسة في مدت
المقدس.

وقد حدا في النهاية عدد كبير من أمراء الفريج حذو
المرسان المضيقين وحاولوا بدورهم أن يختبروا حظهم بعارات
مثمرة على قوافل البرطيين والسراسة سواء. أكان ذلك في وقت
السلم أو في وقت الهدنة وعلى الرغم من جمع المحالقات القائمة
لقد كانوا يرون في هذه الأعمال صرباً من صروب الرابضة أو
على تعبيرنا الحديث نوعاً من الرهان، مود عليهم بالمفعة
والأرباح الجمة

وإني أقول لكم الآن ان أمراء الشام والأتابك كانوا ينسحبون
على نفس المنوال اذا استيت احترامهم — كما يعترف لهم بذلك

أمور حيون ثلاثيون أنفسهم — للتعهدات التي كانوا يقطعونها
على أنفسهم في وقت السلم، ولما كان المرء يدافع عن نفسه بما
يملكه من الموارد فقد قابل أولئك الأمراء الغارات بمثلها
وأحدوا عيون عن فوافل الفرسان الهيكليين والمضيفين الذين
كانت تعهد لهم جمهورية البندقية بحراسة قوافلها الغنية بالبضائع
والهائس الثمينة أثناء مرورها في البلاد. على أنه قلنا وصلت
بذلك نقه أول أو نهاية رحلتها سالمة وكثيرا ما كانت طرقها
تمتلي، بجثث الفرسان المضيفين أو سواهم. وخليق بنا أن
نقول أن الأناك لم يحدأ إلى مثل تلك الوسائل إلا ليضابلوا
هؤلاء الفرسان مثل ما كانوا يلاقونه منهم.

وفي أواخر القرن الثاني عشر، وفي عهد صلاح الدين
كان يعيش رجل معمر رفيع الشأن هو رسول
شعبون. أمر بطريقه السابق. كان هذا الرجل الغريب
الاعوار يتمتع — بفصل ما كان يتحلى به من المسالة والافدام —
بشهرة الطولة من فريسن الفريج على أن ملوك بيت المقدس
أمثال أموري الأول ووردوان الرابع ولوسيدس كانوا
يفصلون الاكفاء بالاعجاب بأعماله الحربية على أن يتدخلوا
في شئونه أو يفصوا مشاكه وديسانسه.

كان شاتيون قد فر من الأمر عند أن قضى بنياً وعشرين
 عاماً في قسنة الأتراك ثم انضم له الخط بفصل فران سعيد فأصبح
 أمير وادي موسى وموسريال و"كك". وهذا الأمير هو الذي
 أثار غلبة صلاح الدين الشهيرة وهي الغلبة التي كانت
 اللاتينية شر الساع والويلات كانت طبيعة هذا الأمير من اللص
 شرسة تمثل ما قدرت به ضائع ورسد العرب في ذلك العهد من
 ميل للمعمرات وتغصن لأراقة الدم. وقد حن في الشرق أصبح
 أشبه بدوي وبسي لا يري احب الا سادة عاراب وعنه ان
 وما يروى عنه أنه لما كان أميراً على اصف صكة، العشرين عاماً
 خلت، استقر الامر اطوريه البرضيه، عمه الاحراميه المتكررة
 وكاد يثيرها ضد الفرج. وانكس مدا عساه أن يقع لوانه
 استطرد أعماله هذه ضد عدو يمثل سلطان صلاح الدين ومقدرته
 وعظمته (١) أما تلك الاعمال التي تحدث عنها، حروبها، فقد
 عاودها، ريو دي شاتيون، كلها.

كانت مصر والسام في ذلك الوقت رشح حكم السلطان
 الأعظم وكانت بعية هذا السلطان المحبومة على طرق المواصلات
 حرة طليقة بين مختلف أجزاء امراضوريته. ولما كانت تمتلك

(١) - بطور حروب صليبية حروب

دي شانيون ، وهي الكرك ووادي موسى تمتد على طول خط
المواصلات بين دمشق والقاهرة . أمضى صلاح الدين هدنة مع
« ريو دي شانيون » لعدة سنوات . وكان يتعين على هذا الأخير
— بموجب تلك المعاهدة — أن يكف عن القيام من قبله في
الكرك وشوبك (مونتريال) بأية عارة على قوافل المسلمين وأن
يحترم المواثيق المتبعة في وقت السلم أو على الأقل أن يحترم —
وفقا لمبادئ الشرف الأولية — العهد الذي قطعه على نفسه
والمعاهدات التي وقعها وهي معاهدات كانت تعود عليه بهوائد حمية
إذ كان يتقاضى بموجبها رسوما باهظة عن كل قافلة تمر بأراضيه
ولكن إذا كان صلاح الدين قد أحترم دائما كلمته فإن
أمراء الفرنج والعرب المصليين قلما كانوا يحترمون كلمتهم . أما
« ريو دي شانيون » فإنه لم يحترمها إطلاقا .

قد اشتهر عام ١١٨١ في تاريخ معامرات « شانيون » بأشد
حمية من حملاته وأعظم حراة ووقاحة . فقد حدث — لكثرة
ما رأى في سن الفرنج من قوافل وحجاج يحتملون أراضيتهم في
كل ربيع ، في طريقهم من سوريا إلى المدن المقدسة ، ولكثرة
ما سمعوه من الأفاصيص عن نجار العرب والجمالة البدو وما يحملون
من كسور ثمينة إلى تلك الأصماغ المجهولة المحطور دحوها

على غير المسلمين ان التهمت محبته او تلك العريسات فحل اليهم
ان الكور التي ترسل الى الحجار وتراكم فيها عطيفة لا تقدر
بشئ .

قالت الرؤوس وتوترت الافكار . اجمعت نحو غاية حسونة
قل أن يوجد ما يحول دون الوصول إليها

ولم تكن التصورات الحريئة تروق في عني أحد أكثر
من كانت تروق في طر . رسو دي شانيون . ففهم الى لم يكن
تعرف الخوف والخرع الى جانب ما كانت عبه من الحرقة وعدم
التعب من شئ . . كانت لا تتوق الا الى مراحمة الحجاج للاستئلاء .
على قوافلهم ثم محاصرة المدن المحطورة المفتوحة كمكة والمدينة
وفرض الاتاوة عليها .

كانت تلك الحطة تتطلب لتفسيدها العطب على كثير من
الصعاب بسبب المسافات الطويلة التي كان يجب وضعها في وسط تلك
الصحاري الفاحشة المرامية الاطراف . لقد كان من المستحيل
الوصول الى مكة . ومن حتمها عن طريق البحر ولذا فكر في أن
خير السبل لادراكها هو عن طريق البحر .

والواقع ان مقطعي الكرك وموزيال كانتا تمتدان من
البحر الميت الى جوار خليج العقبة على البحر الاحمر حيث كانت

ماء . عابله . الموحشه المعصرة تقع في أقصى طرف تلك المنطقة
المتجهة نيران الشمس المحرقة .

كانت لمدينة . عابله . في ذلك العهد مكانة كبرى كيباء للابحار
ومركز تعص به القوافل القادمة من مصر والشام والحجاز
وفي طريقهم إليها . واسها لذلك استفتت انظار . شاتيون . فكان
لا بد له أن يستولى عليها أولا لضمان نجاح حملته

فأمر بصنع سفن في عسقلان أو في الكرك حيث أخذ
بدو الصحراء على عاتقهم أن يقولوا أحزاهها الى بحر العقبة على
ظهور حملهم في بطير ثمن معين (١) ثم أعيد تركيب هذه الأجزاء
على السب حن . لعرب من عابله وهكذا أعدت — للقيام بتلك
المعركة الحربية — خمس سفن شراعية كبيرة وعشر سفن أخرى
أول حجمها منهم أي ما يوازي أسطولاً صغيراً مؤلفاً من ١٥ أو ١٦
سفينة . وقد شحنت تلك السفن بالرجال والعنادر والمواد الغذائية
عنى وجه السرعة كي لا تفصل أساؤها الى السراصة لان . شاتيون .
لم يكن قد رفض معاهداته معهم . وما هي الا فترة وجيزة حتى
أفلع أولئك المعامرون — وهم من معامري القرن الثاني عشر —
وخاضوا بسفنهم غمار البحر .

(١) أقاصيص بيزطة والحروب الصليبية لقوستاف شلومبرجر صفحة ١٤٦

وقد روى لنا المؤرخون بلعنهم السادحة ان أمير الكرك
قسم أسطوله إلى مجموعتين ، حاصرت الأولى منه ميساء ، عابله ،
بقيادة شاتيون ، وقال المؤرخ شلومر حرة ان المجموعة الثانية
الفرنجية ، أسرعت في رحلتها نحو العابة اى كانت ترمى اليها وهي
سلب المدينتين المقدستين : مكة والمدينة

وقد لشت سمر الفريخ نحو عام تقريبا وهي نزل الخراب
والدمار في سواحل البحر الاحمر . ثم انجحت نحو عدن وسلبت
المدينة وهبتها وآتت منها رهائن من الرجال العطاء بينهم قاصي
المدينة وكثير من العلماء . ثم قصدت سمر المعامرين السواحل
المصرية فحربت ميساء عيذاب الصغير الذي يقع مقابل حده تهرسا
وسار اولئك المعمرين بعد ذلك بمحاذاة الساحل فسطوا على
قافلة عظيمة بين عيذاب والنصير وفتكوا بجميع رجالها . ثم
استولوا على ثلاث سمن عريه وودكوا مئات الخجاج الذين
كانت تقلهم تلك السمر عائدة من الحجاز ، وقد صرح المؤرخ
و أرمل ، بأن تلك العصابة كانت ثرية فاحرة تم تحويه من
الكسور الثمينة

ولم يسبق قط لهذه البلدان الهائلة المسألة ان رأت مثل ما رآته
من فظائع الصليبيين وجرائمهم . وقد وصلت أساء هذه الحوادث

المؤلة الى القاهرة هب العالم الاسلامى اجمع وثارت ثائرتة
سخطاً واشتمزازا .

وفى مدة عياب صلاح الدين فى سوريا كانت شقيقه الملك
العاذل يدبر شؤون مصر ولياسة عه . فلم يضيع النائب وقته سدى
ولم يلم يكن لمصر سمن حرية فى البحر الاحمر . حذا الملك
العاذل حدود الدوق ، دى شاتون ، فأمر بلك أجزاء بعض السفن
فى مـبـ ، دمياط ونقلها على جناح السرعة فوق ظهور الخمال الى
البحر الاحمر حيث عـبـد تركيها بالقرب من السويس .

وقد تولى الأمير لؤلؤ قيادة هذا الاسطول فتحنه بالمواد
العدائية وحجـره برحال من المعاربة والمماليك المدربين على
معارك الحـار وأفلح بأسطوله فى الايام الاولى من شهر
يسير اعم ١١٨٣ .

وقد انقصر المصريون أولاً على سفن اللاتين التى كانت
تـحـصره عابله ، وانقدوا المدينة من براثنهم فى اليوم الثانى من
شهر مارس لعام ١١٨٣ (٥ ذو القعدة ٥٧٨) . وهـكـذا
اصطر الفرنج بعد ان احترقت سفنهم الى الالتجاء الى البر حيث
هرمهم القائد لؤلؤ شر هزيمة على الرغم مما أبدوه من المقاومة العنيفة
وعلى اثر انتصارهم أحد المصريون يتعقون المجموعة الشابة

من سفن الفرنج .

وكان لابد للقائد لؤلؤ من السير حيث لا بأسطول
الفرنج كان قد أنزل الفرسان عند ساحل جزيرة العرب حيث
أخذت جموعهم تسير في الرمال المحرقة متجهين نحو المدينة
وفي شهر يوليو اكتشف القائد ولؤلؤ سفن اللاتين راسية
عند شمال حدة دمرها واستولى على عدد كبير من الأسرى
ثم أخذ يطارد السفن الأخرى

وقد انضمت جموع أهالي السواحل والنجاح إلى المصريين
للدفاع عن المدينة . ولم بعد أمام الفرنج ضربق يستطيعون
الانسحاب منه بعد أن حرق جزء من سفنهم وأسر الحرء الآخر
فأخذ المسلمون يطاردونهم خلال صحراء العرب المحرقة حتى
أدركوهم أخيراً في وادي ، منى ، على مسيرة يوم من المدينة
المكرمة .

وبعد معركة عنيفة سحق لؤلؤ الفرسان اللاتين وعادهم
أسرى إلى القاهرة حيث رحب به الأهلى ترحيباً حماسياً عظيماً
واستقبلوه استقبال العزاة الفخريين .

ولكن صلاح الدين لم يتغاض عن فعال ، شانيون ،
فاحتج على مسلكه المشين احتجاجاً شديداً لدى الملك بودوان الرابع

وقد هال المؤرخ حروبه : ان ما هذا الاعتداء الجوفى قد
 عمر بلاط الدس في بحر من الشجون . ويلوح أن مسلك الامير
 قد استغزى بوجه حاصر شعور الاشتمزاز في قلب الملك بودوان
 الرابع وثار حقه وسخطه عليه . فقد قطع المريج بما ارتكبه
 من الاحضا . حل السلام في ظروف مشبه جعلت العالم الاسلامي
 فاضحه ينظر إليهم بصرته الى الخسوة الحاشين بعهوده . على أن
 بـ دوان — اراء الخطر الماثل أمام عييه — تدرع بعهوده الذي
 يحوله له حق الميثاق فوج . ريو . توبجا مرأ ودعاه الى أن يرد
 في احوال ان صلاح الدين جميع نعمته الى عمها والرجال الدين
 وقعوا في أسر . ولكن أمير شرق الاردن كان يهراً بسلطة الملك
 وهما كان يصعب من نفسه موضع الاعتار فقط بل بالرفص
 والاستهزاء جميع بدائم الشرف أو الواجب التي وجهت اليه
 وصغر من شأنه ان لا اعرف اصلاح الدين بعجزه عن
 حمل هذا الامير تبع على الطاعة : فشنت الحرب بين المملكتين (١)
 واجتاح صلاح الدين شرق الاردن ثم أرض الجليل وهجم
 على القريسات المضيافين في نيسان ودحرهم ثم دك قلعته في القموار
 التي كانت تسيطر على طريق الدصرة ثم همل راجعاً الى دمشق

(١) صورة دوان حربه .

الشام . وغزا جيش آخر من السراينة مدينة مؤاب ومويزيل
حيث خاضوا نهرين بعد حركته بأعجوبة من معمرته الخويبة في عابيه
وقد كان عندئذ في حالة يرثى لها واستجد الملك الأحدم
بودوان الرابع . كان ملك بيت المقدس "نعس" على حساب خصمه
من الورع وانتقوي فقدر ما كان عليه من النساء والتجاعة ، على
أنه كان مصابا بداء عضال منه ضفوفته فكانت حيله سديدة
احتضار بطل . ولكنه احتضار قصه على صهوه حواده فكان أشبه
باحتضار الحمايرة الانطال . وقد كان من كرم هذا الملك أن
لم يبدأ الأمير الحاش الذي ضلما تحدى سلطته الملكية ، وجمع
حيوشه وأسرع الى كركنه وأعدده وتمسكاته من مخاض العرب
ووصل بودوان الرابع في حمته الكه الى أبواب دمشق حتى
أقرب من دريه الى احترام مسجدها وأهلها . على أنه كان لاس
للملك أن يتوحيص حقه من صلاح الدين الذي كان مهمكا في
أرض حوران . وقد عاد صلاح الدين وحمل على القريح في حلب
وانزع المدينة من أيديهم ثم فقل راجعا الى دمشق لاعداد حملة
ثالثة على فلسطين .

عندئذ نال المرض من نشاط بودوان الرابع فعاد الى الدصرة
فأفقد البصر تقريبا ودعا حوله أقرباءه وتباعه والطريرك

هبر قبيوس . وفي وسط هذا المجلس العائلي عهد المختصر الى د عي
دي لوسينين روح شقيقته سيبينا بوصاية لعرش و قيادة الجيش
كان د عي دي لوسينين . ش . جميل الطلعة معجبا بنفسه ولكنه
كأن ضعف الارادة متردداً وقد سلك في حكمه مسلك
المجلس على حد تعبير المؤرخين اللاتين فدل على أنه زعيم
ضعيف

و عهد ادماء بضعة شهر ان عام ١١٨٤ اجتاح صلاح
الدين ارض الخلس من جديد . فسار لوسينين الى ملاقاته على
أن لمراسلة هزموه شر هزيمة عدة عدى حاولت . وقد
حاول أن يصرح من أمر تلك الهزيمة الشعاء فأمر بالقبض
مهموم عام مقبض وهو هجوم كاد أن يودي بحياة فرسان المرح
لوه نحل ريموند لثالث أمير طرابلس دون سفيذه . ففقد لوسينيان
عدداً من رماة حشاه وحاشه قواه فولى الادبار تاركاً أمير طرابلس
والفرسان تولون حماية السحاهم — بقدر ما يستطيعون —
اراء فيرات صلاح الدين القاهرة .

وفي النهاية أدي سلوك عي دي لوسينيان المشين وعدم كفاءته
في سوء تصرفه في احتلاله نهائي مع الملك بودوان الذي أوله
من قيادة الجيش والوصاية على العرش وعهد بهما الى ريموند

أمير طرابلس . وفي عام ١١٨٥ توفى أمير بودون الرابع
تخلقه على عرش القدس - ووفاء لإرادته الأخيرة - ابن شقيقه
بودوان الخامس وهو طفل في السادسة من عمره . وفي العام
التالي أي سنة ١١٨٦ توفى الملك النطيل في عكا وآل العرش إلى
الوارثة الوحيدة وهي الأميرة سيب شقيقة الملك لاجوس
وزوجة دغي دي لوسيان ، الذي كان هناك من الأمراء
اللاتين من يريد به ملكا عليه

وقد ظل ريموند الثالث أمير طرابلس له حقوقا في
عرش القدس . وقد عارض الفرنسيون واللاتين - وكلهم
من أشد أعداء لوسيان - معارضة شديدة وقالوا أن يعرفوا
بالأميرة الشابة وحقوقها الشرعية في السج فاجتمعوا في مجلس
واصموا تحت لواء النطيل أمير طرابلس وضوا حصونهم بأن
يعترفوا لهذا الأخير بحقوقه في مملكة بيت المقدس وإن كانت
تلك الحقوق غامضة غير شرعية .

على أن أولئك الفرنسيون عملوا دون أن يعاوانهم يسوعيون
شائون ، أو نحوهم له حسابا . فتصر أمير الكرك لفصيلة الأميرة
سيدليا وروحها وحصل لها على أيدي الضربك هيرفيوس ورجال
الدين الذين انضم إليهم الهيكليون مدافع الصغبة واحدد نحو

المصيافين ما فيهم القدماء . . . ودافع الانتقام من أمير صرائس الذي
حرم رئيس طائفتهم من إيرادات اقطاعية بوتروم . وبعد
أن سم لهم إقامة الروجين المملوكين في القدس دعوا جميع
أناس المملكة بما فيهم أمير صرائس الى حضور حفلة تتويج
سبيل وروجها غي لوسينان .

وقد حضر لعظماء من أتباع الملك على البطريرك أن يتولى
إقامة الشعائر الدينية في حفلة التتويج . وأحاط البطريرك والفرسان
الهيكليون الذين انضموا نهائياً الى قضية الاميرة سيديليا على
هذا الاصدار أن أغلقوا أبواب القدس وتحصنوا فيها للدفاع عن
نفسهم ضد كل هجوم محتمل قد يقوم به أولئك الأناس

فاستعجل الأمر واشتدت خطورته . على أنه كان يستحيل
على المملوكين الحديدين أن يتوجوا بغير مساعدة رئيس طائفة
المصيافين الذي كان — بماله من الحق بحكم مصه — يحتفظ
بمفاتيح الكنيسة التي تحوي التيجان الملكية والصوالح والزيتون
المقدسة التي لا غنى عنها لتتويج الملوك ومسحهم . وقد رفض الرئيس
رفضاً تاماً أن يجيب طلب البطريرك بتسليمه مفاتيح الخزانة
أو الاشتراك في حمة التتويج اذا هو لم يتفق أمراً صريحاً بذلك
من جميع الأمراء الأتباع الذين كانوا — كما رأينا — ثأرين

على الاميرة سيبيليا وزوجها لوسيبان و أخيرا فكر رئيس
المضيفين في أن يلزم مقر طائفة ليضع حدا لكل مناقشات
ومباحث لا طائل تحتها

وهكذا اردادت الحال تعقيدا وارثا كما واستولى الحزن
والياس على الاميرة سيبيليا وزوجها لوسيبان من تعسف
رئيس المضيفين وتصلب رأيه . فما الحيلة يا بري ؟ اذ ذاك سعى
أنصار الاميرة الى الرئيس وكان الوقت يمر سرعا ورحلوه
وتوسلوا اليه فضجر من إلحاحهم وألقى بمقاييس الخرافة في وسط
الغرفة (١) . . هكذا استطاع أولئك الانصار أن يضعوا أيديهم
على الأدوات اللازمة للقيام بهذا التوبيخ . وكان الشؤم كان
ملازما لتلك المؤامرة . فلم يتوخ الطيريك هير فليوس الا الاميرة
سيبيليا وحدها . عندئذ تناولت سيبيليا التاج بدورها وحدها
رأس زوجها الطائش الخائن أمامها وقالت له : . فصل هذا التاج
ياسيدي فاني لا أعرف من هو حير منك لأقدمه اليه . لقد كان
عملها مؤثرا . على أن إحصاء كأمراة لم يؤثر في نفوس
الحاضرين اذ أن حيراردي ريدهور . رئيس الهيكل كان يحرق
على الأرم عيط من ذلك الذي حرمه من قضايه وتروم كما

كان يتمم بين شقيقه موحى عدراة الى ريموند الثالث . وان
هذا لتاح يوازي ميراث بوتروم (١) أما الامير بودوان دى راما
تحدثنا عن المملكة ليواسل الذى لم يكن لديه شك في عدم
حكماءه لوسبيان فقد همس تلك العارة لمحتومة : وانه لن يمكت
على العرش سنة واحدة حتى تنهار المملكة وتندثر .

أما ريموند الثالث أمير طرابلس فقد استشاط غضبا لصياح
العرش منه فتودد الى صلاح الدين وعقد معه معاهدة ود وصداقة
وعند اعلان هذا السأ أراد الملك غنى ، أن يسير ضد الامير
ولكن تناعه اثوره عن عزمه بفصل ارشاداتهم الحكيمة
وسداد رأيهم وحملوه على عقد هدنة مع صلاح الدين وقد
حدها ريموندى شاتيون ، حدوه بعد ادراي الحالة تتطور من
سوء الى أسوأ ، وأسرع بدور الى عقد الصلح مع السلطان . ولما
كان صلاح الدين يعلم ما بصمره شاتيون من سوء النية وقلة
الاكتراث بعهوده وعدم احترامه لها . فقد طلب الى الملك
على ، أن يصمم تعهدات الامير وسلوكه في المستقبل ، فلى
الملك هذا الطلب طرا لتأييد شاتيون له وتعصيده في حفلة
تويجه المضطرة . وهكذا شملت الظمأينة البلاد وساد السلام بين

(١) اسطورة الحروب الصليبية لجروسيه صفحه ٢٢٦

مملكة بيت المقدس وصلاح الدين وقد بدل كل من لغيره من
ما في وسعه للمحافظة على تعلماته وسارت الامور سيرها الطبيعي
الى أن عاده شاتيون ، وعك صغور السلام ، اعتدائه وجرأته
الشيعية (١)

ففي اوائل عام ١١٨٧ ذاع نأ مرو . قافلة هامة قادمة من
الحجار في طريقها إلى دمشق . وكانت من امثلة سيرة
ركاب اميرة من الاسرة الايوبية (٢) وكانت شقيقه صلاح
الدين ، شمس الملوك ، الملقبة بـ سيدة الشام ، وهي عاتية من
مكة بعد اداء فريضة الحج (٣)

فلم يستطع الفارس اللص — عند سماعه هذا الخبر —
يكتسح حجاج عرائه الشريرة التي تدعوهم الى الهب والسلب
وكانت هذه اللحظة هي التي احتارها لاثاره الحرب واصرام
يراسها . لقد كان لصا وطلا طلة أيام حياته لصاً وفكس للقبوة

(١) محمد وسيفه . وفي شاتيون لم يرد في تاريخ صلاح الدين .
وقد عرفت من حجاج مكة وقد روى على
التي عرفت من عهد صلاح الدين

(٢) في تاريخ صلاح الدين
في عهد صلاح الدين

(٣) نفس
شبهه صلاح الدين

ثم وجأها وسط على ما يحمله من الصائم والهي بالتحار
ورحل الدفلة وحنود الحاشية في أعمد سجون الكرك .

ولم سح الاميرة الا بفصل احلاص بعض المماليك من
رحل حاشيتها . أما الدفلة فحزرت وقتل جميع من كان يرافقها
من احواح وهكدا نقضت معاهدة الصلح واستفحلت الحال
من حراء نك الاهله الحظيرة الى خنت بالاسلام .

وطب صلاح الدين ان شانيون ان يرد اعف ثم ورفض
شانيون . فاحه وثار برعنه عصب السلطان وحفده فاقسم بأنه
لا يدنس بموت قبلا واسوف يقتله يده . ثم رفع الامر الى
الملك (غي) وناشده مروته

أدرك (عي دي لوسيين) حضرة الموقف وعظم حرم
(شانيون) فتوسل إليه أن يجيب مطالب صلاح الدين لاحتباب
ويلات الحرب ولكنه لم يلق من الامير الا كل سخرية واستهتار
وما أن بدت بوادر حالة التوتر الى نشأت بين المسلمين
والصليبيين من حراء ما تقدم حتى دل الملك غي — الذي قلمما
احزمه ورساه وطأ هرا منه انصاره ولم يعترف له العظماء من
امراء اللاتين وبيهم ويمود الثالث امير طرابلس بحق ملكيته —
على أنه غير كف لتدليل العقبات وحل المشاكل بقدر ما كان

عاجزاً عن تنظيم الدفاع عن مملكته.

وفي عثون شهر مايو من عام ١١٨٧ قام صلاح الدين، ولما
تحمّد يران ثورته، محاصرة شاتوب، في الكرك وأطلق
أيدي جنوده تهب وتسلق في شرق الأردن، ثم قرر فراره على
احتياح مملكة بيت المقدس نفسه ليهدد الملك عي ويحصل منه على
ترصية لا اعتداء، شاتون، حربي أو أن يقاتل ويستمت في
القتال حتى النهاية لإعادة الأمور إلى نصابها

فطلب صلاح الدين إلى حليفه ريموند أن يمنحه حق المرور
في أراضيه بالجليل، فارتبك الأمير ارتباكاً شديداً من هذا
الطلب وأسقط في يده إذ أنه عرف حتى الآن كيف يستعمل
صلاح الدين إليه ويتدرع بحمايته ضد (عدي لوسيديان)
هذا هو رقص للمسلمين حق المرور خلال ولايته وقد يعصب
صلاح الدين الذي لم يتحل الحطة واحدة عن حمايته، وإذا هو
مسحهم هذا الحق فقد يعد ذلك حروجه على المسيحية. وقد
ظن أمير طرابلس أن استطاعته أن يحتب الأمر المحتوم
بالتحدي حل وسخط يقدره شروط مع هدنة مع صلاح الدين
وتخفف من وطأة الاصطدام بين المسلمين والصليبيين فسمح
لأحدى طلائع جيش صلاح الدين بالقيام بنسرة مسمية في

أراهمي المبرج شرط أن تمر هذه الطليعة عند الفجر ثم تعود
فتحتاز سحر الأردن قبل أن يرخي الليل سدوله وان لا تنزل
في طريقها أية حسارة ولا تهاجم أية مدينة من مدن اللاتين فعمل
صلاح الدين بهذا الشرط .

والمرء كما يؤسف له أنه وقع في تلك اللحظة ما لم يكن في
الحسان . إذ رأي الملك . عي . أنه من أسب الامور اليه
أراء تهديد السراية أن يجمع شمل القوات اللاتينية ويوحد
صفوفها بماهاقه مع أمير طرابلس وكان عدتذ في ضربه . ولكنه
أساء التصرف اذ بعث إليه . وقد يضم بين أعصائه . حيرار دى
رندفور . رئيس الهيكلين وعدو الامير اللدود . وانه لو تعمد
احراج الموقف بأكثر مما كان عليه لما اختار لحظة للصلح مثل
هذه اللحظة ولما اتدب رسولا غير هذا الرسول .

وما أن عرف حيرار دى رندفور في اليوم الثاني أن
قوات صلاح الدين لا تست أن تحتاز الجليل للقيام بمناورتها حتى
نادى في جموع الهيكلين وسار في مقدمتهم الى ملاقات المسلمين
فدركهم في صفورية . وكان المسلمون عدتذ — وفاقا لمعاهدتهم
مع رندفور الثالث — قد قفلوا راجعين هادئين مطمئنين بعد انتهاء
مناورتهم الى قاموا بها دون أن ينجم عنها أي ضرر ذى بال

للأراضي المسيحية (١)

وقد حاول الفرسان الهيكليين عشاً أن يشوا أنفسهم عن
عزيمه ويدينوا له حماقة عمله في مثل هذا الظرف الخرج
والقى . حاك دي ماي . نفسه على أقدامه وناشده أن
يعدل عن معاصرته الخوية فأنهى إل نفس عليه باللائمة وأهانه
بقوله : ه أنت تريد الاحتفاظ برأسك الخيل الأشد فذلك نخشى
عليه أن يتحطم !

فرد عليه جاك دي ماي بأباه وشتم : ه لسوف أمان حتى
الموت كالفرسان أما أنت فسوف تتود بالفرار !

وهذا ما حدث فعلاً . فقد حبل للرئيس أنه لا تحالة طوره فحمه
على رأس ١٥٠ معتلا من الفرسان والهيكليين هجوما
عسيفا على السراية . وهم بصعبه آلاف من الرجال فاستولت
عليهم الدهشة بادي . دي بد من ذلك الهجوم الفجائي ووقفوا معه
موقف الدوع ثم تحولوا إلى الهجوم بدورهم وأعملوا تسف في
الصيدين ولم يلبثوا أن فتحوا بقوتهم الصغيرة فتكا دريع
ومات . حاك دي ماي . كاي موت الاصل وكا نأ نفسه وولي
الرئيس الأدمار يصحه ثلاثة من الهيكليين وهم الثلاثة الذين

بحر من تلك الكارثة المشؤومة .

وصفق ريموند الثالث واثابه البحر عندما شاهد من أعلى
هضته في طريقه جموع المسلمين وقد نكسوا على أعقابهم عائدين
من صفورية في طريقهم الى نهر الاردن وهم يهزون رماحهم
تحليها رؤوس الهيكلين !

فازاء هذه الظروف القاسية وحصول صارا . بفيه من أن
انقلابا عظيما لاند أن يحدث حتما طرا لتلك الاعتداءات المتكررة
وعلى الرغم من اشتراكه وهوره من غي . الذي أساء اليه
بعد ذلك صروفاته السيئة واحطائه المؤلمة . على الرغم من هذا كله
قبل أمير طرابلس أن يتصفي معه . وصالحه عساه أن يدرك الخطر
المحدق به في تلك الساعة . ولم تكن الساعة لتتسع لعباب أولوم
أو هاشم . لا طائل نحتة . واجتمع (عي دي لوسينيان) ملك
"قدس وريموند الثالث أمير طرابلس في جنين واتفقا على حشد
في انهم المؤلفة من ألفي فارس و ٢٠ ألف مقاتل من المشاة
وانضمت الى اولئك الجنود قوات رينو دي شاتيون وغيره من
امراء اللاتين الذين كانوا يعيشون في عزلة تامة بعيدا عن
الحدث (عي) ولم يعضوا تحت لوائه الا عقب اتفاقه مع ريموند
الثالث وشعورهم بأن الخطر يقترب منهم ويهدد كيهم جميعا .

وتم اندماج قواتهم في الوقت المناسب إذ أن صلاح الدين كان
قد اجتاح من جديد أراضي الخليل بقوات لا تقل عن قواتهم عددا
وعددا. ووصل برحمة الساحق حتى ضربه، وقد قتل المؤرخ
خروسيه: (أن مدية ضربه السهلي لم تقاوم أكثر من ساعة).
 واجتمع الملك على أعضاء محسه وكانوا جميعا يحدون فكرة
الزحف السريع على طبرية لمهاجمة صلاح الدين واستراد أمديته منه
أما ريموند الثالث، أمير صريه، فعلى الرغم من أن هذا العمل
كان بهم ادان فيه بحدة فلعنه حيث كانت تقيم روحته وأجلاه
الأربعة فقد كان أهـل من عارض تلك لفكرة وإدعى للتصحيبه
وإشاد الملك بأن لا يستعد عن موافقه المحصنة المروده عند
الصفورية وأن يرقب عندها بجي. صلاح الدين وهجومه

وبما كان الأمير يشج للملك ووجه ضده وليس له أن
الطريق التي كانوا سحاروها لا تحوى بقعة ماء واحدة وأن
حيادهم ورحلهم سيهلكون طمأ وتعا من حرارة شهر يوليو
المحرقة. اعترضه رئيس الهيكلين بغيظ وحق وأحبه بأن مثل
تلك العبارات تطوى على روح الهزيمة ويشتم منها رنحة الحياة
على أن ريموند ظل مصرا على معارضته وكاد ينجح في حمل الملك
على العدول عن مشروعه. لو لم يتمكن رئيس الهيكلين

وربما دى شاتيون بدهاتهما من ادخال الشك في ذهن الملك
المتردد تلميحهما بأن أمير طرابلس خائن لقضية اللاتين وأنه
يريد أن يجلب العار عليهم ويحملهم على الوقوف مكتوف الأيدي
لا يبدون حراكا كالجناء. وهكذا استطاع أن ينتزعا من
الملك أمره بزحف جيش الفرنج.

ولم تلق مشادات أمير طرابلس الاحيرة الاكل تردد من
الملك ولم يقابلها الهبة كبون غير التهم والسحرية. كان رئيس
الملكين مستيقظا وكذلك حقه كان متيقظا. وكان ذلك سببا في
السكرهم وهرجنتهم وتحققت نوات ريموند الثالث ومخاوفه
مرحلة مرحلة. وما كاد الصليبيون يغادرون مواقعهم الرطبة في
صفرية لينزلوا في الصحارى المففرة حنوي جبل طوران
وشرفيه حتى وقفوا من جيش صلاح الدين موقفا غير ملائم
فداك كان معسكرا عدا شطى. بحيرة طبرية فكانت حركاته والحالة
هذه نرمى الى انقاء حوش الفرنج في مواقعها الجهمية المحرقة
الفاحلة.

وحركت جيوش الفرنج في ليل اليوم الثاني لشهر يوليو عام
١١٨٧ من صفرية متجهة نحو طبرية. وفي مساء اليوم الثالث
من شهر يوليو عسكرت قوات الفرنج لقضاء الليل على هضبة

حطين ، لم يجد رجل بل ولم تجد دابة نقطه ماء تروى بها في تلك
الدلة الجهمية ، كما يقول المؤرخ أربو

وعندما بزغت شمس اليوم الرابع من شهر يوليو وابتدت
بأشعتها المحرقة على الفرسان ودروعهم الحديدية والقولاديه
كانت جيوش صلاح الدين قد أحاطت بمواقع اللاتين واشتهز
السراسة فرصة هبوب ريح هب حارة عاصفه وأصرموا السار
في الأعشاب والشجيرات التي أبدستها حرارة الصيف وبدأت
معركة حطين في جو خائق جهنمي .

وتالت هجمات الفرسان وتناحرت في وسط أعاصير من
الرغام ومحت سيول من السال فكان الرجال المسلحون والمشاة
ورماة السال من الفرج لا تتحركون إلا انتهى الصعوبة وقد
عميت أنصارهم بالتراب والدخان .

وأدرك الملك هغي ، حصاه المشؤوم اذ مارأي فطاعة الموقف
ورهنه . فبحم مرتين عساه أن يقد شرف مملكته وشرف
الفرسية اللاتينية . وفي هاتين المرتين وصل الفرسان الى قرب
قوسين أو أدنى من المكان الذي يقف عنده صلاح الدين يحيط
به أبناء أحيه وامراته .

ووقع الهبيكيون والمضيفون والفرسان في الفخ الذي

صب لهم فقهوا قتال اليأس وتمكوا من وقف صدمة فرسان
الكرد. وهب أنقى صلاح الدين بجزء من احتياطيه فرحلت
كفة المعركة. وكانت هزيمة الفرنج وفرسان اللاتين هزيمة
شنة كاملة.

وعندما مالت الشمس الى العروب صاح أحد الامراء من
أتباع صلاح الدين أن القربح قد اهزموا فاحابه السلطان . لئلا
يهرمهم ما دام عم مبيكهم لم يسقط . . . وفي تلك اللحظة كما يقول
شلومر حر . وقعت حيلة الملك ^(١) وكان ذلك بفعل عماليك
صلاح الدين الذين شقوا طريقهم الى الامام والقوا بالخيمة
على الارض دلالة على الانتصار . لم ينج غير قليل من القربح فقد
هلك نحو من ثلاثين ألفا وأسر ثلاثون ألفا ^(٢)

وفي نهاية ذلك اليوم الحاسم ادخل على السلطان صلاح الدين
وأوقف بين يديه رجل محدودب يرتعد غصصية ووجلا رائع النصر
تدل طاراته على الصعوب الخشماي والألم المعوي وحلقه حشد من
الأسرى^(٢) ذلك الأسير هو . عي دي لوسيديان ملك القدس . .

۱۰۹ عجمی سب سے زیادہ خوب صورت ہے۔

٣. سؤوال سائقه عن كنه و هو من عن و سس و ر بوق شاعرا
و د . من سؤوال من سؤوال كنه و د . حيتان بحيرة و . حرف كل من
سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال
سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال سؤوال

وكان صلاح الدين املك المهر وم وهؤلاء الاسرى المشهورين
أمثال القائد موري الشجاع والقادر علي بن أمير ايسلان
والصكوت حوسلان ورئيس هاهيب المتكبر . مدة ملو لها
الشهامة والكرم . ولكن طار انه كانت ترمق شبوب كهد واحتضر
ودنا صلاح الدين من الملك . عني . وفده . دده . وحلته
الى جانبه .

كانت نسوة الدعة قد تملكته حتى أن مقاصده كانت يرتعد
فخاطبه السلطان برفق ولطف عني أن يهديه من روعه ثم
قدم له كوبه من ماء الورد المرطب بشوح لسبب التي يعود أن
يحضرها سعاة السلطان من أقصى لسان على ظهور الخيل حتى
معسكر السلطان بل الى قصره في القاهرة ، وبعد أن ارتوى الملك
وعني ، دال الكأس الى الأمير دريبو ، فخرهم عن آخرها
فغضب السلطان على الملك بأنه وشتم وقال له . . لم استدي لأصرح
بارواء طمأ هذا للعين الكافر ، فاستد من ملزم نصيب . حيب . .
وقال دات . . . ان عادات العرب هي تقصير بالحفظة على
حياة أسير اذا هو شرب أو أصيب على مائدة أسره . . .

ومرت برهة صحت رهيب على حضور . . ثم ارتفع صوت

صلاح الدين من عجز رهبا . وحاطب أمير الكرك وعانته على
خياناته وسوء تصرفاته وسرقاته وجسرائته واتهمه بأنه السبب
الأول في تلك الحرب واتهمه أيضا بأنه كان السبب بفصل أخطائه
في شقاء عدة أمراء وآلاف من الأبرياء .

واستطرد صلاح الدين قائلا : « كم من مرة أقسمت وحدثت
وجاءه أمير شرق الأردن بوفاحة أن تلك هي عادة الملوك (١) »
قال صلاح الدين : « لقد أقسمت مرتين بأن أقتلك إذا ما تمكنت
من شخصك ، أما الأولى فعندما أرمعت السير على مكة
والمدينة ، وأما الثانية فعندما غدرت بقافلة مكة » .

عنده هوي صلاح الدين بسيفه على شاتيون ففضى عليه
ووقع ظهره على الملك « غي » ، وهو يرتعش هلعاً فهدأ من روعه
وقال له : « لا يقتل الملك ملكاً » .

وقد أجمع المؤرخون على أن هذا العمل هو العمل الوحيد
القاسي الذي ارتكبه هذا الأيوبي العظيم .

لم يتجه صلاح الدين في الحال إلى القدس عقب انتصاره الباهر
في حطين بل استولى أولاً على مدينة عكا في العاشر من شهر يوليو
ومدينة حيفا في العشرين منه ومدينة بيروت في السادس من

شهر أغسطس ثم على سائر موالي لبنان .

وكان صلاح الدين قد وعد باطلاق سراح الميثاقى في هدير
تسليم معقل الفرنج الاحيرة . فقدم رئيس الهيكلين وعي
وكانت حالته عندئذ تدعو الى الشفقة ، بدور المستعدين السلطان
وامراء اللاتين فوافقا جيش الاسلام ولم وصلوا الى عسقلان
دشدا المدافعين عنها المسلم فقولاً منهم نسل من الاهبات
والسب . ولم تسلم عسقلان الا في السابع من شهر سبتمبر بعد
ان قاومت الحصار ومجمات المعبرين عليها شهراً بأكثره
وغادرها صلاح الدين قاصدا مدينته القدس

وقبل ان يتوجه السلطان الى المدينة طفق سراح
باليان أمير ايلان . .

كان باليان كبيره من أمراء اللاتين تربطه مع أمراء
المسلمين أواصر المودة والصداقة . وكان صلاح الدين يقدره
بوجه خاص بسبب أخلاقه النبيلة وطيبة الهادئة . فرسله الى
القدس للمحافظة على سلامة ماري كورنيل ، ثملة أمورى الآل
وملكة القدس السابقة التى عقد عليها أمير ايلان قرانه في
حفلة رواج ثان .

وعند وصوله الى القدس وجد باليان الشعب في حالة حلع

ورأى الطربرك هيرفيوس ذلك السبب الحقيق الجشع بيت
روح الهزيمة في الشعب بأسلوب غير حذر بالمدايعين الواسل عن
المدينة. كما أنه لاحظ ان البيزنطيين يودون خدمة السلطان بدافع
الخوف والضعية نحو اللاتين، جميع هذه العاصر المتغيرة المشقة
على بعضها هي التي حاول أمير ايلان توحيدها وتطعيمها للدفاع
عن القدس فدعا وصل صلاح الدين إلى أسوار المدينة المقدسة
في العشرين من شهر ستمبر ألفاها على قدم الاستعداد للمقاومة
والدفاع على الرغم من أنه كان يرغب رعة اكيدة ملحة في اجتناب
دمار الحرب ووبلات الحصار لها. وحلق بالتاريخ أن يشهد
بشدة عزم اولئك المدافعين عن المدينة بعد اذ أنوا أن يبيعوا
شرفهم بغير قتل ويستسلموا بغير مقاومة ولا نضال.
وقد أمر صلاح الدين بمهاجمة المدينة بعد أن رفض المدافعون
انذاره الاخير لهم بالتسليم.

وقاوم المريح مناومة عنيفة بل وقد تمكنوا من القيام بهجوم
مضاد في بعض المراكز على أن جنودهم والهندسة المصرية
تمكنوا - تحت حمية آلات المنجانيق - من احداث
ثغرة في أسوار المدينة فاستقر رأي الفرنس وأفراد الشعب أن
يتجهوا لتطبيق قانون الطاهر عليهم بأن يحاولوا الخروج تحت

حزب السلام عسى أن يشقوا لأمسهم طريقا أو يموتوا في حومة
النوعى ، على أن الطر بك هيرقليوس أنهم عن عزمهم (١) .

فلما رأى أمير ابلان أن لا فائدة ترحى من المعصومة ضب
مقالة السلطان وفاوصه بشأن تسليم المدينة اليه على أن يترك
لسكانها حق التمتع بحريتهم فطلق صلاح الدين التقايد
المرعية في ذلك العهد وحدد عشر ورنات لاقتداء الرجل وحمسا
مشب لكل امرأة . على أن الأمر انتهى بقبول السلطان قدرا
معينا لاقتداء جميع السكان .

ويشاء سوء الحظ — على حد قول المؤرخ حروسية — أن
يحول نخل وقسوة الهيكليين والمضيفين الدين الحى . اليهم نزع
المال اللارم — دون انقاذ جميع الاسرى فاحلى سدين سبعة آلاف
وظل في الأسر ستة عشر ألف مسيحى لم تدفع حريتهم بل لست
الامر كان قاصرا على ذلك إذ أن الاهالى أرغموا رعم الهيكليين
على أن يقدم هذا الجرم من المال بأن هددوه بتسليم كوره الى
السلطان .

أما صلاح الدين فقد كان على يقين ذلك إذ قد جميع
تعهداته بكل احلاص وشفعة وشهمه ثم أثار اعجاب المؤرخين

اللاتين ودهشتهم

وقد وضع صلاح الدين حدا لمساومة الهيكليين المشينة
فاختلى سبيل ١٥٠٠ مسيحي من الفقراء ، واقتدى شقيقه العادل (١)
ألف مسيحي بأن دفع حريتهم ثم حررهم في الحال . وحذا امراء
المسلمين حدود الشقيقيين ودفعوا من دراهمهم الخاصة فدية أولئك
الذين لم تفتد حريتهم بسبب نخل الهيكليين وفسوة قلوبهم
وإذا كان لبطريرك هيرقليوس بمحاول تهريب الضائفة الثمينة
والأواني الذهبية المصعة بالجوهر وملابس الهيكل المطررة
بالذهب - أمر مستشار صلاح الدين وهو المؤرخ عماد الدين
أبي مولاة بأن تلك الكنوز إنما تعتبر أموالاً ثابتة . لذلك يجب
أن تظل في مكانها . واقتنع السلطان بمكرة مستشاره ولكنه
فصل أن يتعصى هذا الأمر على أن يثير مناقشات قضائية مع
هيرقليوس الذي كان صلاح الدين يحتقره كل الاحتقار .

فأخذ المسلمون عندئذ يرحلون المهاجرين . وأمر السلطان
أحدي فرق الشرف بمرافقة ملكي القدس ماري كومين وسيديليا
والأميرة انيبيت أميرة شرق الأردن وجميع النساء اللواتي رعين

(١) العادل ، على حد خبر المؤرخين لاني هو سيف الدين وهو قضى حصة
رومانسكي . ولأى بدمر ب وكان مروح أميره جان شمعقة سب ريكاردوس قس
لاندوم حصة وغربت .

في مدبرة المدينة بعد تسليمه حتى مدينتي صور وطرالمس .
ثم ورع صلاح الدين اللاحثين على قومتين قامت قوائمه
بحراستهما لحمايتهما من عارات لصوص السدود . وقل المؤرخ
داريو ، انه عندما كان الفرس المسلمون يشاهدون امرأة أو
طعلا لا يتبها أنهك التعب كان يترحلون ويحلون الاطفال محلهم على
ظهور جيادهم ويرافقونهم مشيا على الأقدام وهم قاصون على
الرس وقد سلم بعض اللاحثين الى امراء اللاتين في ساحل طرابلس
فلم يتورع هؤلاء الامراء عن استغلالهم واستخدامهم غير ما
جاء ولا خجل

وتمنع اللاحثون الآخرون ممن قدموا مصر وآوا الى
مدرا لاسكدرية بحماية السلطان ورعايته ، وقد أمر صلاح الدين
باب بصرف من أمواله الخاصة بسجاء عن لسيدات الأرامل
والعذارى اليتيمات . فاعدت عليهن لعم حتى كن يحمدن
الله وتلهج السنن ، شاء على كرم صلاح الدين ومكارم اخلاقه ،
ولا في اللاحثون المريج في الاسكدرية في سبيل ترحيلهم الى
أوروبا متاعب حمة ومعاكست شتى من مواضيتهم وأساء دينهم
بالها من مآسى مؤلمة ربما كانت مهارل مصحكة لو لم تصد

تظور الى قاحلة بحره دون تدخل صلاح الدين
وقاوتت - اطبات الاسكندرية لاسلامته ورايه سفر
والسدية وحواء الراسية في الميناء في سبيل نقل اولئك
اللاحثين من القدس الى بلادهم ، على ان الرابيه اتوا الماء وطف
ورفضوا ان يصدقوا انفسهم بحمل افس لا يصدقون شروى
نقر ، واستعرفت تلك المباحثات والمقاومات وقتا طويلا بغير ما
حدوني . وعندئذ تلقى قصي الاسكندرية أمرا من صلاح الدين
مصدرة "سفر" وذلك لا كراه الرابيه على ترحيل اللاحثين
فمن الرابيه مرعهم وكسهم أصمروا التحلص من ركايم في
حد اسواحل المقصرة .

وقال المؤرخ حروسية أن الموطفين المصريين لما علموا بما
أصمروا اولئك الرابيه من سوء القوا عليهم نعة عمنهم وعدوهم
مستولين شخصيا عن حياة هؤلاء المهاجرين

وفي لهية أصدر القصى أمرا بالقضاء القصص على بعض
الرابيه وزجهم في طلعات السجن . عندئذ أذعن الرابيه
وقبلوا ان يبقوا اللاحثين لتعساء خوفا من أن يثيروا عصبية
صلاح الدين فبعض مع هداهم التحارية .

وفي ٢٧ رجب ٥٨٣ الموافق ٢ أكتوبر ١١٨٧ وهو

يوم ذكرى الاحتفال السوى بامعراج دحل صلاح الدين
الايوبي مدينة القدس دخوله التاريخي المشهود.

وخلافا لما كان عليه مسلك حودهم وادى بوبون والصليبيين
الذين دمخوا ايمان دحوهم القدس عام ١٠٩٩ عشرة آلاف مسلم
من المسلمين اللاجئين في مسجد عمر فصلا عن اليهود والمسيحيين
المشقيين وقد مثل بهم أشنع تمثيل الى حد لم يتعالت معه علوم
رئيس أساقفة صور دون إظهار ألمه العميق واداء لومه بقوله :
« كانت المدينة تمثل مطر مدحه بحبة رهبة والسماء تسيل
أنهارا بحيث أن الظافرين أنفسهم قد تملكهم الدعر وهاج
شعورهم اشمئزازا... »

وخلافا لما أنه محمد الثاني فيما بعد عد دخوله القسطنطينية
دخول الفاتح الغاشم عام ١٤٥٣ أدقث جنوده من الانكسارية
بالاهالى الابرياء بعد أن افقدهم انتصارهم وعيهم وشعورهم
الانسانى. وخلافا لما فعله سواء من العزاة الدين يزخر التاريخ
بذكر الامثال لعديدة عن طغيانهم وفسادهم سواء أكان
خلال فتوحاتهم أو بعدها — لم يبد الايوبي العظيم أي مظهر من
مظاهر الدح والاباية ولم يستسلم لابة عاطفه ديثة ولا لأي
تعسف أو ظلم.

لقد كان بمقدور مكتته التاريخية حق قدرها فرد للإسلام
عقب الخرم الشريف الذي عاد إلى ما كان عليه أي جامع عمر ،
ورد معد سليمان أو معد لهيكلين فاصح الجامع الأقصى
واستردت المآذن مكانها في مدينة القدس .

وعندما حر صلاح الدين ساحدا وأحى رأسه الملكى أمام
الحلاق العظيم تحت قبة جامع عمر بن الخطاب كان يعلم أنه لم يبت
من الدفاع عن الإسلام والشرق وأن الحرب لم تصع أورارها
بعد أن معدت الحرب الصليبية الثالثة كانت بحمر في أوروبا .
وكانت تلك الحرب الصليبية ثلثة ستوقف في وجهه أشد
الخصوم وأشجعهم وأكثرهم اقدا ما وأبعد أمراء العرب شهامة
وهو : ريكاردوس ملك الانجليز .

ان تلك الحرب للصروس وما لارمها من المواقع القوية
والمعمرات الخرافة والمواقف المجيدة والحوادث المفجعة وجميع
ما وقع من الاحداث القصصة وأعمال البطولة والآمال التي لم
تتحقق واليأس العميق لدى استولى على لقوس وكذلك فشل
الحملة للصليبية الثالثة فشلا تاما ، كل ذلك أشهر من أن يجهله امرؤ
ولا حاجة بنا إلى تكراره وسرده .

على أن هناك أمرا في حياة صلاح الدين ربما ظل مجهولا

وبكته بصمت أحلاوه نأكلهم وصفا دقيقا حقيقيا عما تحدث من
عظمة وما انطوت عليه نفسه من نزاهة شخصه اسمح لمسي بأن
أعبر عنها بأنها نزاهة راقية، أما هذا الأمر فهو أن صلاح الدين مات
فقيرا وقد يدعشكم هذا تعبير بلا شئ؟ ولكنه الخسفة لا
ريب أو تريب.

وقد يحيل اليكم - على حق - أن السطر العظيم
المحيم الذي حكم مصر وسوريا ودمشق و بطن الحروب الصليبية
وقامح شتى المدن والبلاد قد جمع لكتور المكسدة وقطف ثمار
فتوحاته الواسعة. هذا الاحتمال قد يتطرق إلى الدهن ولكنه
في الواقع لم يحدث.

فاصعوا إلى ما كتبه هيوارت المؤرخ الاوروي الكبير
المدع في كنهه تاريخ العرب، نأسلونه لشيق الممتع عن مهية
صلاح الدين، عندما قضى صلاح الدين بحبه في دمشق في الرابع
من شهر مارس عام ١١٩٣ (في يوم الجمعة ٢٧ صفر ٥٨٩) بعد
حملة استعدين له له ولما بلغ الخمسين من عمره لم يترك في حريمته
الخاصة سوى ٤٧ درهما من الفضة أد أن كل ما كانت نحويه
صرف في سبيل الحرب وكان على أخته ست الشمام (سيدة الشمام) أن
تورع من أمواله الخاصة الصدقات والاحسان عند تشييع جثته^(١)

١ - تاريخ العرب هيوارت جزء الثاني صفحة ٢٧

الحديث التاريخي السابع

المترجمون اللاتين واليهود في القرون
الوسطى — مدرسة الترجمة التي أسسها
ريموند رتيس الاساففة في طليطلة اباد
القرن الثاني عشر — المدرسون العرب
مدرسة فرنسا في القرن السادس عشر —
بيير هانييه ، المنشرق مترجم دوق
بورليان وطيبه الخاص — عناية فرنسا
بالآداب العربية في القرن الثامن عشر

الخاتمة

لقد حاولت في حديثي الاول أن أفص عليكم ما يدور به
العلم للعرب ففت لكم ان الغربيين وجدوا في القرون الوسطى
باعتراف علماءهم وافرارهم حرام من العصر الاولى التي قامت
علم دعائمهم وثقافتهم في حضارة وعلوم العرب الذين
عربوا معظم مؤلفات قدماء الاعراق العلمية وتعلموا عليهم
وسحوا على موالهم فواصلوا أعمالهم وسعوا فيها .

ويقول لنا المؤرخ الفرنسي . هيوارت . ان اورونا لم تقف
في القرون الوسطى على العلوم المنشرة في الشرق الا عن طريق
المترجمين وقد كانت معظم تراجمهم باللغة الاسبانية وهي اللغة العبدية
الوحيدة التي كانت أكثر انتشارا في ذلك العهد .

وقد لعب الرهبان المقيمون في الشرق وبغدهم يهود اسبانيا
وصلة الدين اعتنقوا الدين المسيحي دورا هاما في رواج تلك
التجارة الفكرية والعلمية اذ كانوا يقومون بدور الوسط
أو دور حلقة الاصل بينهم وبين الراغبين فيها من تصو
نفوسهم اليها .

أما العلوم التي استرعت اهتمام المترجمين بوجه خاص فكانت
علوم الطب والحساب والبصر . المناظر . والفلسفة . الفلك .

وأول من بلغنا خبره من المترجمين أو الدافلين راهب قرطحي
يدعى قسطنطين الافريقي طاف الاقطار الشرقية ربما طويلا حتى
استقر به المقام في النهاية عام ١٠٦٠ في دبر . موب . كسيس .
بمدينة . ساليرن . حيث ترجم عن اللغة العربية مؤلفات ابقراط
وجالينوس وكتب . كامل الصناعة . لعلي بن عباس وكذلك
مؤلفات احمد الجزار .

وهذا مترجمون عديدون عملوا على نشر مصنفات

العرب في الغرب نخص بالذكر منهم:

— افلاطون لطيسوي وقد أوفد في برشلونه حيث تعرف على كاتب يهودي يدعى ابراهيم الملقب بـ «سافاروردا» أي صاحب الشرطة. فتعاون معه على البحث والتقيب مدة ٢٢ سنة من عام ١١١٦ حتى عام ١١٣٨ وكان ابراهيم «سافاروردا» قد صعد باللغة العبرية والعربية بحث في الهندسة فوصله افلاطون الى اللاتينية وكتب ترجمته هذه ثمادة الاساس الذي استند اليه «ليوناردو فيبوناتشي» من مدينة بيزا في تصنيف مؤلفاته وكان هذا الاخير أول من وضع لعلوم الهندسية في متناول العرب وعمل افلاطون وابراهيم على نشر مؤلفات العرب في العرب وخصها: «كتاب المنطق» لـ الحسين بن اسحق ومؤلفات مختلفة لاس الحياط وعلي بن احمد العمري الذي حفر العربون اسمه وسموه «هالي بن هدم ميت ابرابوس». وقد ترجموا فضلا عما تقدم بحث لاس الثاني في حركة الاحرام نشر في مدينة نورمبرج عام ١٥٣٧ ثم في مدينة بولوني عام ١٦٤٥.

«يوحنا الاشيلي» وقد ولد في طليطله من أبوين يهوديين والتحق بصفه مراحم في هينه المترجمين التي اشأها المونسنيور ريموند رئيس اساقفة طليطله، فوضع بالبعه اللاتينية عام ١١٤٢

— استنادا الى تأليف العرب — بحث في علم الفلك سماه
Epitome Titius Astrologiae وقد طبع وشرع عام ١٥٤٨ ثم أعيد
 إليه أن يترجم من العربية الى اللاتينية بحثا في صيانة الجسم البشري
 وهو بحث استخرج من مؤلفات يحيى بن بطريق الذي شرعته
 (سر الأسرار) في مدينة هال عام ١٨٨٢ واشترك كذلك مع
 حيرار الكرماني في ترجمة مؤلفات ابن سينا الى اللاتينية وهي
 مؤلفات طبعت عام ١٤٩٥ كما ساعد على ترجمته كتاب (احصاء
 العلوم) للفارابي وقد تولى كاميراريوس طبعه في باريس
 عام ١٦٣٨ .

وتدعى أوروبا هيئة الترجمة العربية اللاتينية التي انشأها
 رئيس الامة فرديناند في طليطلة ابن القريب الذي عشر
 (١١٣٠ — ١١٦٠) بتراجم كاملة او جزئية وابحث وتعلقات
 وند لمؤلفات العرب الادبية والعلمية التي لا تنضب او لا حصى
 ما لم تتلفه منها بحكم التفتيش الهمجى المتعصنة . ونحن لا يسعنا
 طبعاً أن نذكر هنا الا بعض هذه التراجم الشهيرة مثل « محصر
 علم الفلك » للفرغاني (وهي طبعة نادرة نشرت في مدينة فراري عام
 ١٤٩٧) . ومقصد الفلاسفة ، للفرغاني وقد نشر عام ١٥٠٦ —
 وكتاب الارصاد لابي علي يحيى بن الخياط الذي حروف

العربيون اسمه معروف عندهم باسم « النوهالي » وقد نشر هذا
 الكتاب باللغة اللاتينية لأول مرة في مدينة نورمبرج عام ١٥٤٩
 ثم كتب « الحساب » للحوارزمي أو علم العدد وقد كتب
 بلغة لاتينية لأول مرة وطبع في روما عام ١٨٥٧ باسم
Id est Arithmetica وترجمة علم الفلك وكتب الاتصالات الكبري
 لأبي معشر وهي كتب صدرت باسم المترجم هرمان الدالماسي
 في مدينة أوجسبورج عام ١٤٨٩ ثم في السدقيه عام ١٥١٥ . أما
 مؤلف كتاب أبي الحسن علي بن رضوان الذي ولد في الحيرة ونشأ
 في القاهرة فقد نقلها مترجمون مجهولون ونشرت في السدقيه عام
 ١٤٨٤ و عام ١٤٩٦ وهي (كفاية الطبيب) وكتاب في
 التشخيص وكتاب الاصول في الطب .

ونقل « أبلارد دي باث » الى اللغة اللاتينية من عام ١١٢٠
 الى عام ١١٣٠ مقدمة علم الفلك لأبي معشر و (الجداول) لمحمد
 بن موسى الخوارزمي وكذلك كتاب (العاصر) لأوكليدوس
 الاسكندري (طعة عربية) .

وفي عام ١١٢٧ ترجم أسطفان الانطاكي الى اللاتينية كتاب

« كامل الصبغة » لعلی بن عباس (طبع في البندقية عام ١٤٩٣)
وانتقد فيه انتقاداً لادعاء فلة الذهب التي اتاها وسططير الاوربيقي في
ترجمة هذا المؤلف .

وكان « روبرت ريتيسيس » رئيس سفينة بامبلون الملقب
(بالبحري) وهو من أصل انجليزي أو سكتوني أول من
ترجم في عام ١١٤٣ القرآن الكريم الى لغة اللاتينية باسم
(المذهب المحمدي) على أنه نعمة فيه التحريف والتشويه ونشره
في مدينة بال عام ١٥٥٠

وترجم « مورينوس رومانوس » وهو راهب من دير
« كليرفو » الحداول الملكية لاس التاني ومؤلفاً في علم
الكيمياء طبع عام ١٥٦٤ باسم (*Transmutatio Metallorum*)
أي تحويل المعادن .

وعندما كان الراهب رومانوس في سيحوربه ترجم الى
اللاتينية شرة للحوارزمي « *Liber Restaurationis Gopositionis* »
Numeri أي ما معناه « لغة العربية » الجبر والمقالة .

وترجم هرمون المدرسي الاسكلافوني كتاب « تحويل
العلم » وهو يتضمن أبحاثاً في الارصاد لسهل بن بشر المعروف
عند الغربيين باسم زايل بن بكسير .

و ترجمه و رد دوله و تكميل هرمان الدنمائي كتاب
الكرويات لمسلمه وليس حاليوس الا ان غالب وهو
عربي من طليطلة ساعد (دايدل دي مورليه) على ترجمة أبحاث
بطليموس^{١١} الى اللاتينية من عام ١١٧٥ الى عام ١١٨٧
وكان دايدل الذي ولد في كستربري انجليزى الاصل تلقى علومه في
اكسفورد ثم سافر الى طليطلة في اسبانيا لاستكمال معارفه في
الحساب عند عرب الأندلس .

ووصى حيران لكرمانى زما طويلا في طليطلة وقرطبة .
ثم قفل راجعا الى مسقط رأسه في كرمون حيث توفي عام ١١٨٧
عن ٧٧ سنة وقد ترجم هذا الكاتب الذي لا يعرف الكلل
الدهن وخواص العناصر ، لاسحاق بن حنين وطبعت تراجمه
في فيسا عام ١٤٩٢ . و ترجم كذلك مؤلفاته حجاج بن يوسف
والمؤلفات التي وضعها حيران لاشيلي في علم الفلك وكتب
الافواس المشابهة في الهندسة لابن الداية والقانون لابن سينا
وهو كتاب نقله الى اللغات الاحدية أكثر من خمسين مترجما
وطبع أكثر من ثلاثين طبعة منها خمس عشر طبعة قبل عام

^{١١} بطليموس حاليوس الذي ولد في طليطلة كان من
قصر في حيران بعد الحج

١٥٠٠ وترجم تحت عنوان *Liber Trium Fratrum* أي
(كتاب الأشقاء الثلاثة).

وهو تحت في ميباس الأشكال المسطحة والصك وية وضعه
الأشق، الثلاثة المشهورون في علم الحساب وهم محمد واحمد
وحسن أولاد موسى بن شاكر وقد نشر هذه الترجمة في
مدينة هال عام ١٨٨٥ الميسو كورتز في مجلة (*Acta Nova*) التي
يصدرها معهد العلوم الطبيعية في ألمانيا.

وفي عام ١١٩٨ ترجمه *Johannes I. de Prato* كتب
Manuel des Antidotes للرهر اوى الذى يحمل سبب تسميته
« دلو كسيس ».

وترجم ميشيل سكوت أو سكوتوس من مصطفة فيف،
باسمكتندا، على طلب امك دوارد لاول ملك المجلد
كتاب « التعلقات » لـ *De Caelo & Mundo* رشد وسماء
وكذلك كتب (التخصيص) لفلس الفيلسوف ومنحص لكتاب
علم الحيوان لـ لان سينا وقد نشرت هذه التراجم عام ١٤٧٣

١ - بعد ذلك كان في قوسه في معجمه في شهر ربيع
مصر من لاس - ثم مؤلفه في سنة ١٠٠٠ م وقد كان
وهو كتب معجمه ١٨٩٦ م مؤلفه في ما - من لاس
بعد الحرب سنة ١٩١٤ م

و ترجم اسطفان السرفسطى من نهالى مدييه لريده عام ١٢٣٣
 كتاب السطء لاس الحرار الذى حرف العريون اسمه فلقوه
 (س ريرار) وتوحد مخطوطات هذه الترجمة فى مكتبة مرسى .
 أما هيرمان الالماني الذى كان فى عام ١٢٨٠ استادا لروحيه
 ما كورن فقد حأ عام ١٢٦٠ الى مساعدة مترجمين المسلمين لنقل
 كتاب - علم البيان - لاس الفارافى وطبعه فى روما عام ١٥١٥
 وفى عام ١٢٥٥ ترجمه يهودى يدعى يونا كورا بعنوان كتاب
 الكليات ، "سير الذى وضعه اس رشدى الطب . وقد
 شرت ترجمه هذا المؤلف القيس القيم فى لسدقة عام ١٤٨٢ ثم
 فى سترامسورج عام ١٥٣١ .

ونقل يهودا بن موسى وهو طبيب يهودى من طبطله الى اللغة
 الاسانيه مؤلفات عد الرحمن لصوفى منها فهرست ، اسكواك ،
 ومؤلفات على بن أنى الرجل وطبع عام ١٨٨١ .

وقد عرى الى روير الحبيكوس أو الانجليرى ترجمه كتاب
 الفيلسوف الكدى أما الترجمة فتحمل الاسم اللاتينى :

[De Judiciis]

وفى عام ١٢٨٠ ترجمه نارا فيسيوس ، وهو طبيب من
 السدقة كتب ، التيسير فى المداواة والتدير ، لافى مروان

عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر الاشيلي وقد أعيد طبع هذا
 الكتاب الطي عدة مرات منذ طبعته الأولى في السدفة عام ١٤٩٠
 وترجم فرح بن سالم الحارثي الذي سمى العربية بـ "تارة باسم
 فاراشي وتارة أخرى باسم ورحوت وفسراروم كتاب الطب
 العملي لاس حين وانقسم لاس حمله وذاك بناء على طلب
 شارل دوق الحو^{١١} بعد عام ١٢٧٩ وقد جاء في مقدمة ارفقت
 بالكتاب الاخير أن الترجمة انتهت في اليوم الثالث عشر من
 شهر فبراير عام ١٢٧٩.

وترجم أرمان دي فيسوف الذي توفي في برشلونه عام
 ١٣١٤ كتاب القلب لاس بن وكتب الاعدية لاس زهر
 وقد نشرت ترجمته هذين المؤلفين عام ١٦١٨ باسم المنترحم
 وترجم كالويوسوس لكتاب العربي بناء على طلب
 روبرت دوق الحو بحقه التحف وهو ما كتبه القران في مقدمة
 ان رشد ويوجد من هذا السهم احييل عدة مخطوطات في
 مكتبته المتيكان وقد تم وضع هذه الكتب في مدينته آرل عام
 ١٣٢٨ ونشرت في السدفة عام ١٤٩٧ و ١٥٠٨

١ - كان شارل دوق الحو ١٢٢٦ - ١٢٨٥ - من آل سافوي - مع كتاب من
 (تقدس ورس) من كتابي دوق الحو وقد فقدت نسخة من هذا الكتاب في
 فرنسا في وقت

وقد ورد ذكر بقولاماس وهو طبيب من السدقية توفي
عام ١٥٦٩ - في لطعة اللاتينية من كتب الصواب لأن
سياسا. وكان ذكره صفته مترجماً لحياة دانت لفيلسوف
الشهير التي وضعها، سورساوس، أي أبو عبيد الحور حزاني
تمديد الاستد لأعظم.

ولما جاء عهد النهضة الادبية وددت ظلمات القرون الوسطى
م بهف سير أعمال الترجمة، فقد أصبحت هذه التراجم على نقيض
ما كانت عليه أشد ضرورة وأكثر نفعا بانتشار اللغة اللاتينية
بين الطبقة المثقفة أي بين رجال الدين وأمرأ أوروبا الذين
كانوا من هواة جمع الكتب النادرة والمؤلفات القيمة وساعد
نهم في الطباعة ورقية على تعميم عدد كبير من المؤلفات الى
ترجمت في القرون العاشر والحادي عشر وطبعت من المخطوطات
حتى ذاك العهد.

وساعدت المدرسة المارونية التي أنشأها الد غريغوريوس
الثالث عشر عام ١٥٨٤ في روما - حيث كان أكثر من عشرين
شابا يتلفون العلوم الشرفية - على نشر اللغة العربية في الاوساط
الثقافية. وقد تخرج من هذه المدرسة ثلاثة أشخاص افاض هم:
جبرائيل الصهيوني واراھيم اكسليسيس *Abraham Echeleus*

ويوسف السمعاني .

ولد أولهم وهو جبرائيل الصبوي في همدان بآذربايجان
نحو عام ١٥٧٧ وشغل منصب أستاذ اللغتين العربية والسريانية
في مدرسة الحكمة بروما ، ثم دعاه الملك لويس الثالث عشر ملك
فرنسا سنة ١٦١٤ على توصية « سافاري دي براف » *Savary de Breves* ،
للتعليم في مدرسة فرنسا والقيام بمهمة السكرتير المترجم في عام
١٦١٤ . ولم رأى الملك دسالم دي ريشيليو انه لا يعمل في
الترجمة التي يعمر بها اليه وفيما برعته أمر بوضعه في برج قصر
فانسين حيث ترجم للكردينال في مدة لم تتجاوز ثلاثة شهور
كتاب « الجغرافية » للادريسي . وقد نشرت في باريس عام
١٦١٩ باسم *Geographia Nubtensis* وبعد أن اشترك جبرائيل في
ترجمة الكتاب المقدس (التوراة) الذي نقل الى عدة لغات فصحى
نحوه في باريس عام ١٦٤٨ .

أما الثاني وهو ابراهيم اكسيسيس واسمه العربي الحفصهي
ابراهيم اخو فلانسي فقد ولد في بلدة حافس بمديرية حبل بلسان
وبعد أن تلقى علومه في روما حيث درس الفلسفة سافر الى
باريس وعين أستاذا في مدرسة فرنس عام ١٦٤٦ ، وبعد ترجم
كتاب « التاريخ » لابن الراهب المصري ، وفي عام ١٦٥٠

نشر باللغة اللاتينية نبذة عن تاريخ الفلسفة العربية بعنوان
Synopsis Propositiorum Sapientiae Arabum وقد توفي في روما
عام ١٦٦٤ .

وكان الثالث وهو جوزيف اسمي . واسمه العربي
يوسف السمعاني من أسرة أصلها من قرية حصرون بلسان
ولمكة ولد في طرابلس الشام عام ١٦٨٧ . وقد عهد اليه
الناكيبان الحادي عشر بوضع فهرست للمخطوطات العربية التي
كان الكريسي السوي قد حصل عليها حديثا . وكلفه كذلك فيما
بعد عام ١٧١٥ بأن يأتي من سوريا ومصر بعض المخطوطات
التي تألفت منها العصر الأولى التي أنشئت على أساسها المكتبة
الشرفية الشهيرة في القتيكان . وعين الناكيبان الثاني عشر
يوسف السمعاني مديراً لمكتبة القتيكان وجمع عليه الملك
شارل الرابع ملك نابولي لقب مؤرخ مملوكه لصقليتين وتوفي
نيافة الكرديبال السمعاني في روما عام ١٧٦٨ تركا خلفا له احد
أبناء أشقائه وهو يوسف الياس السمعاني الذي ولى بعده تدريس
اللغتين العربية والسريانية .

وقد أنجب القرن السابع عشر اماما من ائمة المترجمين الذين
عرفهم العرب في شخص ذلك المستشرق العلامة وهو (بيرفانيه)

طبيب دوق أورلين ، وترجم سيره وتبه كتب لتاريخ لاس
 المذكور عام ١٦٥٧ ثم المطلق لاس سبعا ١٦٦٠ والأمراض
 العقلية لاس سبعا أيضا عام ١٦٦٢ ، الاتقادات العممية
 لعد الرحمن بن ناصر (أو *jab torochoman* كما يسميه الكتاب
 اللاتين) عام ١٦٦٤ . كما أنه ترجم كتاب مصر لمصرى بن عفيف
 عام ١٦٦٦ . وقد توفي ببر فاويه في مدينة رواسا عام
 ١٦٦٨ .

وبزوع فجر القرن الثامن عشر في أوروبا وفي فرنسا
 خصوصا — فرنسا التي لم تقدر ثقافة العرب وحضارتهم وحسب
 بل وقفت على روح الشرق العميقة وسرت غورها ، بدأ عامل
 جديد في أوروبا أو اذا شئت فقل ان موجة جديدة طغت عليها
 ودفعت بالعربيين الى الافعال على العلوم الشرقية ودرسها وهكذا
 تسمى لهم أن يعرفوا كتب العرب معروفة خصوصا بقراءة
 مؤلفاتهم ومصنفاتهم ويكونون عنهم فكرة واضحة ليستعصوا
 بها عن تلك الفكرة العدمية التي كانت راسخة في أذهانهم من
 جراء مطالعة التراجم اللاتينية المشوهة .

وتريد النواميس الطبيعية الا يكون هناك جديد على وجه
 الارض وان يرجع كل شيء الى منعه الاصل في عالم المدينة

مثلاً وفي عالم الثمارة فإن من جاء من العرب الى الشرق ليس الا
ما أحده العرب عن الشرق اللهم الا اذا نحن استثنينا مدينة خاصة هي
مدينة استعمال الملاصق تقصيرة (اسورت) وتناول الكوكبتيل
وسماع الحرمان واستعمال العارات الخافقة والمدى العقيمة
والكلمات الجوفاء . ومعنى هذا أن الاغريق أخذوا عن
مصر إذ هي أقدم منهم عهداً بآلاف السنين وان العرب أخذوا عن
الاغريق ثم جاء الغرب فأخذ بدوره عن الشرق . . .

على أن دور الشرق لم يمت بعد هذا الحد أو يته . . .
فجميع أولئك الذين يحنون أرض الشرق ويتمنون
رفيقاً وعظمتها كما يتمنون أن يسود السلام العالم بأسره . وجميع
من قدموا لها فواهم وعفرياسهم ودماءهم ليدركون ان لابد أن
ينلألأ يوماً في أفق الانسانية المعذبة فجر أيام مجيدة لشرقنا العزيز
الذي قاد الانسانية كلها ردحاً من الزمن غير قصير .

فألى المدينة والمتمدنين نفتح بعض أبواب الشرق في وجوه
الشرقيين والغربيين لعل الأوائل أن يستردوا مجدهم التالذ ولعل
الأواخر أن يعترفوا للسابقين . . .

البحيرة في ٧ ذى الحجة ١٣٦١ هـ

١٥ ديسمبر ١٩٤٢ م

استدراك

وقع بعض أخطاء طبقة سب سرعة الطمع
لا تخفى على فظة القاري، الكريم



DT

MAR 1974

MAR

DT
79
B5x



